

البلغة القرآنية
في

التصوير بالإشارة والحركة الجسميّة

الدكتور عبد الله محمد سليمان هند اوّل

الدكتور عبد الله محمد سليمان هندراوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

بكلية اللغة العربية - جامعة الازهر

فرع الزقازيق

البلاغة القرآنية
في
الإشراق والحركة الجسمية

الطبعة الاولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

مَطْبَعَةُ الْأَمَانَةِ

۴ فرجنیہ ہدیہ - شہر مصر ۱۹۳۹ء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين
وامام المتقين وأشرف الخلق أجمعين المبعوث رحمة للعالمين وعلى
آله وصحبه أجمعين ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه الى
يوم الدين • وبعد •••

فهذا بحث في روضة من رياض القرآن الكريم يتناول
جانبا جديدا من بلاغته وهو الصورة الحركية بالاعضاء الجسمية
التي بقصد من ورائها الدلالة على معنى مستكن في باطن النفس
الانسانية ، فان من المعاني الذهنية ما يظهر أثرها في أعضاء
النفس البشرية ، فيلجأ الانسان الى التعبير عما بداخله من
المشاعر الانسانية تجاه الاحداث المتباينة التي تثير شعوره
نحو الرضا بشيء ما أو الفرح به أو التعجب منه أو انكاره ،
أو السخرية منه والتهكم به أو الرغبة فيه أو النفور منه
أو الاعراض عنه أو الخوف منه أو اظهار حركة عضوية تعبر
عن شيء خلاف ما في باطنه كما هو الشأن في حال المنافقين •
أو تصوير حدث معين بصورة حركية تظهر في الاعضاء
الجسمية ، أو تصوير صفة معنوية في حركة عضوية ، كل
هذا يحكيه القرآن وينقله لنا ويصوره في المشاهد الحركية
التي تمارسها الاعضاء الجسمية للدلالة على نكتة بلاغية تظهر
من خلال السياق •

وقد يعمد النظم القرآني الى نقل الحركة فقط للتعبير عن
موقف ما من المواقف ، وقد تقتزن الحركة الفعلية بالعبارة
اللفظية حسبما يقتضيه الحال ويتطلبه المقام ، ومن المعلوم أن
الشيء المحسوس المشاهد أقوى تأثيرا في النفس ، وأشد علقا •

بالقلب ، وأكثر ثباتا فى الذهن من الشيء المعقول ، أى الذى يدرك بواسطة العقل ، ولذلك يقولون : « ليس الخبر كالمعيان ولا الظن كاليقين » ، والمعلوم بواسطة الحس اسبق حصولا للنفس من العقل والنظرى ، لان المشاهدة والروية لها اثر كبير فى النفس متجدد، ومصدق ذلك انك لو كنت على شاطئ نهر ، وأنت تقول لصاحبك : « انت كالقابض على الماء » فأدخلت يدك فى النهر وقلت له : انظر : هل حصل فى كفى شيء ؟ كان لاقتران الفعل الحركى بالقول ضرب من التأثير زائد على القول وحده ، وذلك لما تفعله المشاهدة من التحريك للنفس وتمكين المعنى فى القلب .

وسنتناول فى هذا المبحث - بمشيئة الله تعالى - الصور الحركية التى تؤديها الاعضاء الجسمية ، وأول ما يلقانا منها الصورة الحركية بالإشارة ودلالاتها وحدها أو دلالتها مع اللفظ بطريق الحكاية لمن لم يشاهدها ، وقبل أن نتناول هذه الصور بالعرض والتحليل ينبغى أن نذكر كيف عرض النقاد والبلاغيون لمبحث الإشارة ومدى تصورهم لها ، وكيف انتقلت من معناها الحسى الى معان معنوية ، وبعد ذلك نتناول الحركة فى الاعضاء الجسمية باليد والوجه والرأس والعين والفم واللسان ، وغير ذلك لما يبدو من وراء التعبير بهذه المشاهد الحركية ونقلها للسامع والقارئ من أسرار بلاغية من خلال النظم القرآنى .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يعم به النفع انه نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

أ د / عبد الله محمد سليمان هداوى

القسم الأول

التصوير بالإشارة (الحسية والمعنوية)

١٢٠٠
١٢٠٠

الاشارة

يقال أشار اليه وشور : أو ما يكون ذلك بالكف والعين
والحاجب قال ثعلب :

نسر الهوى الا اشارة حاجب هناك والا أن تشير الاصابع

وشور اليه بيده : أى أشار ، وأشرت اليه : أى لوحث
اليه وألحت أيضاً ، وأشار اليه باليد : أو ما ، وأشار عليه
بالرأى وفى الحديث : كان يشير فى الصلاة : أى يومئ باليد
والرأس : أى يأمر وينهى بالاشارة ، ومنه قوله : للذى كان
يشير بأصبعه فى الدعاء أحد أحد ، ومنه الحديث : كان اذا
أشار بكفه أشار بها كلها ، أراد أن اشاراته كلها مختلفة فما
كان منها فى ذكر التوحيد والتشهد فانه كان يشير بالمسبحة
وحدها ، وما كان فى غير ذلك كان يشير بكفه كلها ليكون بين
الاشارتين فرق . ومنه : واذا تحدث اتصل بها أى وصل حديثه
باشارة تؤكد . وفى حديث عائشة : من أشار الى مؤمن
بحديدة يريد قتله فقد وجب دمه : أى حل للمقصود بها أن
يدفعه عن نفسه ولو قتله . والمشيرة هى الاصبع التى يقال
لها السبابة (١) .

هذا عن الاشارة الحسية الحركية فى الدلالة على المعانى
التي يريد المرء من ورائها ايصال المعانى الى الالذهان، والاشارة

(١) اللسان مادة (شور) .

وحدها قد تغنى عن اللفظ فى الدلالة على المعنى ، وقد تقتزن باللفظ فتؤكد دلالته وتقويها فى نفس السامع والرائى اذ هى ترجمة له ، وهذه الاشارة الحسية هى النفاية المقصودة فى هذا البحث ، ولكن عرض البلاغيين لهذا المصطلح قد خرجوا به عن معناه الحسى الحقيقى الى معان أخرى تدور فى معظمها حول الايجاز لاسيما ايجاز القصر ، اذ يقصدون منها الايماء أو اللمحة الدالة فكما أن المشير يومئ بيده أو برأسه للدلالة على معان يقصدها ويريد افهامها للرائى كذلك المتكلم قد يريد باللفظة الواحدة أو الالفاظ القليلة الايماء الى معان كثيرة ، فالعنى اللغوى للاشارة وثيق الصلة بالمصطلح البلاغى .

وسنتناول - بمشيئة الله تعالى - فى هذا المبحث : الاشارة الحركية ودلالاتها وحدها أو دلالتها مع اللفظ ، وحكايتها لمن ثم يشاهدها .

ونرى - اتماما للفائدة - أنه ينبغى أن نعرض لتطور هذا المصطلح عند البلاغيين والنقاد .

- ابن المقفع :

لعل أول من تحدث عن الاشارة وجعلها من وجوه البلاغة هو عبد الله بن المقفع عندما سئل عن البلاغة وتفسيرها فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الاشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جوابا ، ومنها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي

فيها والاشارة الى المعنى والايجاز هو البلاغة فابن المقفع يرى أن الاشارة بمعنى الايجاز تعم هذه الوجوه التى ذكرها فقد حصر البلاغة فى الايجاز لشموله هذه الميادين التى تجمع أبواب البلاغة .

- الجاحظ :

عقد الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » بابا للبيان وأقسامه وأنواع دلالاته على المعانى ، فاتسع مدلوله عنده حيث قال فى تعريفه له : « البيان اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته ويهجم على محصله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ، لان الامر والغاية التى اليها يجرى القائل والسامع انما هو الفهم والافهام ، فبأى شئ بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان فى ذلك الموضع » . ثم ذكر أصناف البيان ودلالاته على المعانى وحصرها فى خمسة أشياء :

أولها : دلالة اللفظ ، وثانيها : دلالة الاشارة ، وثالثها دلالة العقد ، ورابعها : دلالة الخط ، وخامسها دلالة الحال أى النسبة .

والاشارة هنا يقصد بها معناها اللغوى وهى التى تحصل ببعض أعضاء الجسم بتحريك العضو على وجه معين للإبانة عن معناه الذى يريد افهامه للرأى أو للسامع على الحكاية ، فمنها الاشارة باليد وبالرأس وبالعين وبالحاجب وبالمكعب اذا تباعد الشخصان ، وقد تكون الاشارة بالثوب وبالسيف ، وقد

يتهدد رافع السيف والسوط فيكون ذلك زاجرا وما نعا رادعا
ويكون وعيدا وتحذيرا وبين الجاحظ أن اللفظ والاشارة قد
يكونان شريكان في الدلالة على المعانى .

والاشارة : تعين على دلالة اللفظ وتقويها في نفس السامع
والرائى اذ هى تترجم عنه وقال : كثيرا ما تنوب الاشارة عن
اللفظ ، وكثيرا ما تغنى عن الخط .

وفى انابة الاشارة عن اللفظ يرى أنها قد تعين ، ولايسد
اللفظ مسدها ، وذلك فى أمور يسترها بعض الناس من بعض
ويخفونها من الجليس ، وغير الجليس ، فهناك أمور خاصة جدا
لم يستطع الناس التفاهم فيها الا بالاشارة ، وذكر قول الشاعر
فى دلالة الاشارة المتعينة والتي لا يسد اللفظ مسدها :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها
اشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا
وأهلا وسهلا بالحبيب المقيم

ويقول الشاعر :

وعن الفتى تبدى الذى فى ضميره
وتعرف بالنجوى الحديث المعسما

ويقول آخر :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها
من المحبة أو بغض اذا كانا

والعين تنطق والافواه صامتة
حتى ترى من ضمير القلب تبياناً

فالعين في الأبيات السابقة تنبئ عما في نفس صاحبها
وتكشف عما في ضميره من الفرح أو الحزن أو الحب أو البغض
وغير ذلك مما هو مركز في طباع النفس الانسانية من
الفرائز والمشاعر والوجدان وهذا نوع من البيان الذي يراه
الجاحظ .

ويرى أن الإشارة تبلغ أبعد من مبلغ الصوت وأن هذا
باب تتقدم فيه الإشارة الصوت يضاف الى ما سبق من الأدوار
التي يسترها الناس ويخفونها من الجليس وغيره حيث تتعين
الإشارة . وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان
باللسان .

وذكر الجاحظ قولاً مروياً عن أبي شمر عن معمر أبي
الاشعث ، خلاف ما ذكره سابقاً في الإشارة وهو أن الإشارة
والحركة عند الخطبة وعند منازعة الرجال ومناقلة الأكفء
تنقص من قدر الخطيب وتبين عن عجزه فروى أن أبا شمر كان
إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم يقلب عينيه ولم
يحرك رأسه حتى كأن كلامه انمأ يخرج من صدع صخرة ،
وكان يقول : ليس من حق المنطق أن تستمعين عليه بغيره .

ولكننا نقول ان الإشارة لا تنقص من قدر الخطيب بل هي
من عوامل تثبيت كلامه في النفوس وتمكينه في القلوب بدلياً
أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أفصح العرب كان إذا
خطب احمرت عيناه وعلا صوته ، واشتد غضبه ، وما يخلج في

صدره كان يبدو على وجهه ، وكان لحركته وإشارته أثر كبير
فى جودة الاداء فحركته معبرة تستلفت النظر ، وتنبه الغافل
وتعين على الحفظ والتذكر كما سنذكر فيما بعد .

أما الإشارة المذمومة والمعيبة عند الخطيب فهى الصادرة عن
العى والتلجلج والتلثم يلجأ إليها الخطيب ليوارى قصوره
وعجزه ولذلك روى عن بعضهم أنه كان يتنحرج ويتلجلج ويمسح
لحيته ، ويقول عند مقاطع كلامه : « يا هناء ! ويا هذا ! واسمع
منى ! واستمع الى ! وافهم عنى . » ابن وهب الكاتب .

وجاء بعد الجاحظ ابن وهب الكاتب فى كتابه « نقد النثر »
والذى عرف باسم « البرهان فى وجوه البيان » وقد تأثر
بالباحظ فى هذا الكتاب ولكنه عند تقسيم البيان الى أنواعه
التي يتكون منها لم يذكر الإشارة على انها نوع من البيان
مستقل بنفسه كما ذكر الجاحظ ، وإنما عدها من العبارة أى
أنها تقوم مقام العبارة وتؤدي مؤداها بل قد تكون أبلغ كما
روى عن بعضهم : « رب إشارة أبلغ من عبارة » فجعلها من
وجوه الوحى وهو الابانة عما فى النفس بغير المشافهة من ايماء
أو إشارة ورسالة ومكاتبة . . . الخ يقول ابن وهب : والوحى
على وجوه كثيرة فمنه الإشارة كما قال الله عز وجل « فخرج على
قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » . . .
ومن الوحى : الإشارة باليد ، والغمز بالحاجب ، والإيماء
بالعين ، كما قال الشاعر :

وتوحى اليه باللحاظ سلامها

مخافة واش حاضر ورقيب

وفى موضع آخر من كتابه نراه يجعل الاشارة مرادفة
للايجاز فينقل عن بعضهم فى وصف البلاغة عندما سئل عنها :
« هى الاكتفاء فى مقامات الایجاز بالاشارة ، والاقتدار فى
مواطن الاطالة على الغزارة » وقال الشاعر فى هذا المعنى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة

وحى الملاحظ خيفة الرقباء (١)

وابن وهب نقل هذا من كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢).

وقد تأثر قدامة بن جعفر بالجاحظ وابن وهب فجعل
الاشارة من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ، وعرفها بقوله :
« هو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بايماء
اليها أو لمحة تدل عليها » وذكر أمثلة كثيرة منها قول امرئ
القيس :

على هيكلي يعطيك قبل سؤاله

أفانين جرى غير كز ولا واني

فقد جمع بقوله : « أفانين » جرى على ما لو عد لكان كثيرا

ومن هذا يفهم أن قدامة قد نحا بالاشارة من معناها
الحسى الى معنى ايجاز القصر وهو أن يدل اللفظ القليل على
المعاني الكثيرة وتحدث أبو هلال العسكري عن الاشارة ولم
يضيف شيئا يذكر الى ما قاله قدامة .

(١) نقد النثر ص ٩٦ .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٥٥ .

يأتى بعد ذلك ابن رشيق فى العمدة فيوسع دائرة الاشارة عن سابقه فيجعلها شاملة لانواع كثيرة من البلاغة ، لكن الايجاز هو سمة هذه الانواع جميعها يقول ابن رشيق : « والاشارة من غرائب الشعر وملحه وأنها بلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة ، وليس يأتى بها الا الشاعر المبرز والهاذك الماهر » وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة واختصار وتلويح .

وذكر أمثلة لها مما ذكره قدامة من ذلك قول زهير :

فانى لو لقيتك واتجهنا لكان لكل منكرة كفاء

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه ثم قال : وهذا عند قدامة أفضل بيت فى الاشارة ، وأنواعها كثيرة منها :

١ - الاشارة الى كيفية الحدث كما فى قول الشاعر :

جعلنا السيف بين الخد منه وبين سواد لمتة عذار

فأشار الى هيئة الضربة التى أصابه بها دون ذكرها اشارة لطيفة دلت على كلفتها .

٢ - قد يشير الكلام الى معنى التشبيه كقول الراجز يصف لبنا ممذوقا :

● جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط ●

فانما أشار الى تشبيه لونه لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب .

٣ - الاشارة الى التفخيم كقوله تعالى : « القارعة ما القارعة » والواقع أن التفخيم فى الآية مستفاد من الاستفهام ومن تكرار اللفظ فلم يقل : القارعة ما هى لتقدمها فى الذكر وانما أعاد اللفظ مظهرًا مستفهما عنه للتفخيم والتهويل أى

ما شأنها وما حقيقتها إنها شيء مهول لا يحيط بها الإدراك ولا يحدها الوصف ، ولذلك كانت الاجابة بما يكون شأنها لا بما هيته . فما هيته فوق الإدراك والتصور فقال تعالى :
« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . » (١) .

٤ - ومن أنواع الاشارة : الايماء كقوله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » فأوماً اليه وترك التفسير معه أى أوماً الى التفخيم والتهويل وأبهمه أى أبهم صلة الموصول للتذهب النفس فى تفسيرها كل مذهب ايماء الى أنها بلغت حداً لا يمكن التلفظ بها ولا سماعها ، فحينما غرق فرعون وأتباعه فى اليم أصابهم من هول البحر أشياء لا يمكن أن توصف، ولا يدرك مداها من الرعب والفرع والشدة . الخ ، والبلاغيون قد اتوا بهذه الآية شاهداً على غرض بلاغى من أغراض التعبير باسم الموصول وهو افادة معنى التفخيم والتهويل .

٥ - ومن أنواعها أيضاً التعريض كقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
فعرض بعمر بن الخطاب ، وقيل بأبى بكر رضى الله عنهما
وقيل برسول الله صلى الله عليه وسلم تعريض مدح .

وذكر ابن رشيى أن من أفضل التعريض مما يجمل عن جميع الكلام قول الله عز وجل « ذق انك أنت العزيز الكريم » أى الذى كان يقال له هذا أو يقوله وهو أبو جهل لانه قال :

(١) انظر فى ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٩٦٠ .

ما بين جبليةا يعنى مكة أعز منى ولا أكرم - وقيل بل ذلك على معنى الاستهزاء ، وقد استشهد البلاغيون بهذه الآية على افادة معنى الالهانة والتحقير من الامر فى قوله تعالى « ذق » وعلى افادة الاستمارة العنادية أو الضدية التهمكية من قوله تعالى « انك أنت العزيز الكريم » أى الدليل المهان ، ففيه معنى الاستهزاء والتوبيخ والالهانة والتنقيص (١) •

٦ - ومن أنواع الاشارة : التلويح يقول ابن رشيق ومن أجوده قول النابغة يصف طول الليل :

تقاعس حتى قلت ليس بمنقض
وليس الذى يرعى النجوم بآيب

- الذى يرعى النجوم - يريد به الصبح أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيذهب بالابل والماشية ، فيكون حينئذ تلويحه عجباً فى الجودة ، وضعف ابن رشيق رأى من يقول ان الذى يرعى النجوم انما هو الشاعر الذى شكى السهر وطول الليل •

٧ - من أنواع الاشارة : الكناية والتمثيل ومثل لذلك بقول الشاعر :

وما لى أبكى الديار وأهلها
وقد رادها روادك وحميرا
وجاء قطا الاحباب من كل جانب
فوقع فى أعطاننا ثم طيرا
فكنى عما أحدثه الاسلام ومثل •

(١) انظر تفسير القرطبي ٩/٥٩٧١ •

٨ - ومن أنواعها : الرمز كقول أحد القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت .

عقلت لها من زوجها عدد الحصى

مع الصبح أو مع جنح كل أصيل

يريد أنه لم أعطاها عقلا ، ولا قودا بزوجها الا الهم الذي يدعوها الى عد الحصى ، وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :

ظلمت ردائي فوق رأسي قاعدا

أعد الحصى ما تنقضي عبراتي

ثم بين أصل الرمز وتطور مدلوله فقال : وأصل الرمز : الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الإشارة ولعله يقصد الإشارة الحسية لا اللفظية . . ونقل عن الفراء قوله الرمز بالشفقتين خاصة .

وذكر ابن رشيق « أكثر الناس يعيبون الكلام المضحوب بالإشارة ويرون أنها حشو واستعانة على الكلام » نحو قول أبي نواس :

قال ابراهيم بال مال كذا غربا وشرقا

ويرد عليهم ابن رشيق مبينا أن أبا نواس لم يأت بهما حشوا ، وانما أتى بها بيانا وتثقيفاً ، واستشهد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكيف بك اذا بقيت في حثالة من الناس قد مرحت عهودهم وأمانتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابع يديه ، ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف . وقانوا مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت . وقيل : حسن (٢ - الإشارة)

الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان نقل هذا
عن الرمانى وهو بدوره متأثر بالمجسط ربيب أن الخطيب من
بنى أمية قد استعمل الإشارة الحسية أولاً ثم اتبعها باللفظ فقال
ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد ، قام رجل من ذى الكلاع
فقال : هذا أمير المؤمنين وأشار بيده الى معاوية فان مات
فهذا ، وأشار الى يزيد فمن أبى وأشار الى السيف ثم قال :

معاوية الخليفة لا نمارى

فان يهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلا

تحكم فى مفارقه الحديد

وبين ابن رشيق أن أبا نواس جاء بإشارات لم تجر
العادة بمثلها وذلك أن الامين بن زبيدة قال له مرة : هل تصنع
شعرا لا قافية له قال نعم ، وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قولى

من بعيد لمن يحبك اشارة قبله

فأشارت بمعصم ثم قالت

من بعيد خلاف قولى اشارة لا لا

فتنفست ساعة ثم الى

قلت للبغل عند ذلك اشارة امش

٩ - ومن الاشارات المحذوف وأنشد الفراء :

قلت لها قومى فقالت قاف

يريد قد قمت . ولكن هذا النوع من التورية لا دليل عليه
فهو من قبيل التعمية والالباس، والبلاغة والبيان بمنأى عنهما .

١٠ - ومن أنواعها التورية تقول عليـة بنت المهدي في ظل الخادم :

أيـا سرحة البستان طال تشوقي
فهل الى ظل اليك سبيل
فورت بظل عن ظل ، وهي ليست التورية بمعناها
الاصطلاحي عند البلاغيين ، لان لفظة « ظل » لا تحمل معنيين
أحدهما قريب غير مراد ، والآخر بعيد مراد كما هو حدها عند
البلاغيين وقد يكون هذا من الجناس المصحف المضمـر .

١١ - ومن أنواع الاشارة : الكناية مثل قول الشاعر :

امرى القيس :
وببيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل
كنى بالبيضة عن المرأة .

١٢ - وعلى الرغم مما ذكره ابن رشيق في الكناية فانه
عاد اليها مرة أخرى وسماها باسم آخر وهو التتبيع ، ولعل
ما ذكره في النوع السابق وسماء كناية انما هو الكناية عن
موصوف ، ويقصد بالتتبيع الكناية عن صفة وقد سماء قدامة
الارداف يقول ابن رشيق :

« ومن أنواع الاشارة التتبيع ، وقوم يسمونه التتبع
وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزوه ويذكر ما يتبعه
في الصفة وينوب عنه في الدلالة عليه » ، وأول من أشار الى
ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن غيبها

وعلق عليه ابن رشيق بقوله : أراد أن يصفها بالترفه
والنعمة ، وقلة الامتهان في الخدمة وأنها شريفة مكفية المؤنة
فجاءها بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة •

١٣ - ومنها : اللحن ويسمى المحاجاة - وهو كلام يعرفه
المخاطب بفحواه وان كان على غير وجهه ، ثم قال : ويسميه
الناس في وقتنا « المحاجاة » لدلالة الحجا عليه ، وذلك نحو
قول الشاعر يحذر قومه :

خلوا على الناقة الحمراء أرحلكم
والبازل الا صهب المعقول فاصطنعوا
ان الذئاب قد اخضرت برائتها
والناس كلهم بكر اذا شبعوا

أراد بالناقة الحمراء : الدهناء ، وبالجمل الا صهب :
الصمان أى الارض الصلبة ذات الحجارة بجانب الرمل ،
وبالذئاب : الأعداء •

١٤ - ومنها : اللمحة كقول أبي نواس :

وشمس حرة مخدرة ليس لها فى سمائها نور

فقوله : « حرة » يدل على ما أراد فى بقية البيت اذ كان
من شأن الحرة الخفر والحياء ولذلك جعلها مخدرة ، وشأن
القيان والمملوكات التبذل والتبرج •

وكثير من هذه الانواع كانت موجودة عند السابقيين
الا أنها لم تذكر تحت باب واحد هو باب الاشارة كما ذكر
ابن رشيق ، وانما كانت متفرقة فى مواضع مختلفة فجمعها

ابن رشيق وضم النظر الى نظيره ، وبذلك يكون قد وسع هذا الباب حتى جعله شاملا لهذه الانواع كلها ، ويلاحظ ان الاشارة عنده شملت الاشارة اللفظية الى المعنى المقصود والاشارة الحسية التى يستعان بها على تمكين الكلام فى النفس وتثبيته فى القلب ، سواء اكانت الاشارة الحسية مصاحبة للفظ أم تسبقه ثم يوتى باللفظ كما بينا .

وتحدث ابن سنان الخفاجى ت ٤٦٦ هـ عن الاشارة اثناء حديثه عن تقسيم دلالة الالفاظ على المعانى ، وهى ثلاثة أقسام أحدها المساواة وهو أن يكون المعنى مساويا للفظ ، والثانى : التذييل وهو أن يكون اللفظ زائدا على المعنى وفاضلا عنه والثالث : الاشارة وهو أن يكون المعنى زائدا على اللفظ أى أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الاشارة واللمحة ، والاشارة عند ابن سنان تعنى ايجاز القصر على ما قرره متأخرو البلاغيين ، ولم يلتزم ابن سنان بمصطلح الاشارة وانما كان يطلق عليه الايجاز والاختصار ، ويرى ابن سنان أن الاشارة أو الايجاز ليس محمودا فى كل المواضع ولذلك اشترط شرطا لصحة الايجاز المحمود وهو أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة ، لا أن تكون الالفاظ لفرط ايجازها قد ألبست المعنى وأغمضته حتى يحتاج فى استنباطه الى طرف من التأمل ودقيق الفكر . ونقول : ان التأمل ودقة الفكر ليسا معيين فى حد ذاتهما ، وانما يعابان اذا كان منشؤهما غموض المعنى واللباسه مما يؤدى الى مجهود فكرى وتعب عقلى زائد عن حاجة المعنى ، أما اذا كان دقة الفكر لاستيعاب المعانى الكثيرة التى يدل اللفظ عليها دلالة بيّنة فهو محمود ، لان طريقه الوصول الى المعانى الدقيقة والاغراض الجليلة . واذا كان ابن سنان قد جعل الاشارة

مرادفة لايجاز القصر حيث فرق بينه وبين ايجاز الحذف فانه جعل التذييل مرادفاً للاطناب بدليل مقابلته بالقسمين الآخرين وقد خالف فى ذلك نهج المتقدمين الذين جعلوا الاطناب اعم من التذييل ، وجعلوا التذييل نوعاً منه (١) .

ويرى ابن سنان أن الاصل فى مدح الايجاز والاختصار فى الكلام أن اللفاظ غير مقصودة فى انفسها، وإنما المقصود هو المعانى والاعراض التى احتيج الى العبارة عنها بالكلام ، فصار اللفظ بمنزلة الطريق الى المعانى التى هى مقصودة فالمحمود هو أخصر الطرق وأقربها سلوكاً الى المقصد (٢) .

وتحدث ابن النقيب فى كتابه الذى نسب خطأ الى ابن القيم عن الاشارة ، وسماها الوحي وعرفها بقوله : هى أن تطلق لفظاً جلياً تريد به معنى خفياً ، وهو بهذا التعريف لا يقصد الاشارة الحسية أو الحركية ، وإنما يريد الاشارة اللفظية الى المعانى الخفية ، وقسمها أربعة أقسام ، جعل القسم الاول منها مختصاً بالاشارة الى الشئ الحسن كقوله تعالى : « وفرش مرفوعة » أشار به الى نساء كرام ، ومنها قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف » اشارة الى عفافهن ، فالاشارة عنده دالة على المكنى عنه، وهذا يدل على أن ابن النقيب خص الاشارة فى أحد أقسامها بالدلالة على الشئ الحسن ، والقسم الثانى منها جعله خاصاً بايجاز القصر كما صنع السابقون حيث قال : « والثانى أن يكون اللفظ القليل

(١) الصيغ البديعى فى اللغة العربية د. أحمد موسى ص ٢١٤ .

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ .

مشتملا على المعنى الكثير وذكر الأمثلة التي ذكرها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين للإيجاز منها قوله تعالى : « فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين » جمع ما تميل اليه النفوس من الشهوات وما تلذذه الاعين من المرئيات ، ومنها قوله تعالى : « فأوحى الى عبده ما أوحى » والثالث من أنواع الاشارة ما يفعله أرباب هذه الصناعة من المعميات والألفاظ ، والرابع من أقسامها : التورية .

فالقسم الاول : من الاشارة عند ابن النقيب داخل في الكناية ، لان المعنى المكنى عنه قد يكون حسنا وقد يكون قبيحا أما تفرقته بين الاشارة والكناية بأن الاشارة في الحسن والكناية في القبيح فهو تكلف وتمحل منه .

وقد ذكر أمثلة للقسم الاول من الاشارة تكررت في كتب البلاغيين على انها من الكناية عن صفة منها قولهم : فلان طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد .

وتحدث صفى الدين الحلى عن الاشارة وجعلها من الالوان البديعية في كتابه المسمى : « شرح الكافية البديعية » وهي عنده تعنى الاشارة اللفظية بقليل من الكلام الى معان كثيرة ، وربط بينها وبين الاشارة الحسية باليد وغيرها على نحو ما فعل ابن أبى الاصمعيح المصرى فقال : وهى - أى الاشارة - عبارة عن أن يشير المتكلم الى معان كثيرة بكلام قليل يشبه الاشارة باليد ، فان المشير بيده يشير دفعة واحدة الى أشياء لو عبر عنها بلسانه لاحتاج الى ألفاظ كثيرة . ومن أمثلتها فى

(١) الفوائد المشوق .

(٢) شرح الكافية البديعية .

الكتاب العزيز قوله تعالى : «وغيض الماء» فانه سبحانه وتعالى أشار بهاتين اللفظتين الى انقطاع مادة المطر ونبع الارض ، وذهاب ما كان حاصلًا من الماء على وجهها من قبل ، وكقوله تعالى : « فيها ما تشتهي النفس وتلد الاعين » ولو شرح ذلك ملأ الاوراق .

وتحدث عن الاشارة علم من اعلام المغرب هو أبو محمد القاسم الانصارى السلجماسى من نقاد القرن الثامن الهجرى فى كتابه « المنزع البديع فى تجنيس أساليب البديع » والسلجماسى قد جمع بين الثقافتين اليونانية والعربية فنجده فى كتابه فيلسوفا منطقيا يتضح هذا فى منهاج كتابه كله يعتمد على اخضاع المصطلحات والمفاهيم النظرية للتقسيمات الفلسفية والمنطقية متأثرا فى ذلك بالمكتبة اليونانية من الخطابة والشعر والمنطق لارسطو والفلسفة الاسلامية من مؤلفات الفارابى وابن سينا ومنهاج تقسيماته يدور حول الانطلاق من الكليات بوصفها أجناسا عالية قسم اليها مباحث منزعزة تتفرع عنها تنازليا تقسيمات من أجناس متوسطة تحتها أنواع متعددة .

وهو أيضا ناقد بلاغى مزج البلاغة بالنقد ومزج الفلسفة بالبلاغة فنجده عند ذكر التقسيمات يذكر الأمثلة له من القرآن الكريم أو من عيون الشعر العربى ويحللها تحليلًا فلسفيا لا يخلو من مسحة أدبية ودراية بما تحتويه من معان ونكات بلاغية فمباحث منزعزة منهاج متكامل بين الثقافتين اليونانية والعربية فهو عبارة عن مجموعة من المصطلحات والمفاهيم الفلسفية التحليل والمنطقية التقسيم ، والبلاغية الروح والنقدية التنظير والتطبيق .

وسوف نقف من خلال منزعه على معالجته لمبحث « الاشارة »
والاشارة عنده من الأجناس العالية العشرة التى يدور عليها
كتابه . « فالاشارة عند الجمهور مثال أول لقولهم أشار يشير
كأنه الايماء الى الشيء والاماع نحوه ، وهو منقول الى هذه
الصناعة وموضوع فيها على العبارة عن المعنى بلوازمه
وعوارضه المتقدمة أو المتأخرة أو المساوقة من غير أن يصرح
لذلك المعنى بلفظ أو قول يخص ذاته وحقيقته فى موضوع
اللسان ، واسم الاشارة هو اسم لمحمول يشابه به شئ شيئاً فى
جوهره المشترك لهما اذ كان جنساً عالياً يحمل على نوعين -
تحتة - متوسطين الأول : الاقتضاب والثانى الابهام .

النوع الأول : الاقتضاب وهو اقتضاب الدلالة ، وذلك أن
يقصد الدلالة على ذات معنى فيترقى عن التعبير المعتاد ، وعبارة
التأخر من الجمود على مسلك وأسلوب واحد من أساليب العبارة ،
ونحو واحد من أنحاء الدلالة فيظهر المقدرة على العبارة عن
المعنى ، وبعد مرماه فى التصرف فى مجال القول وتوسعه فى
نطاق الكلام فيقتضب فى الدلالة على ذات المعنى والدلالة عليه
باللوازم والعوارض المتقدمة أو المتأخرة أو المساوقة اعتماداً
على ظهور النسبة بين اللوازم وبين المألوم وقوة الوصلة
والاشتراك بينهما .

وبعد هذا التعريف الذى اتضح فيه فلسفته الخاصة لبيان
ماهيته يوضح مغزاه وأثره فى النفس والسبب المؤدى الى ذلك
فيقول : « وفى ذلك ما فيه من الالذاز للنفس والاطراب لها
بالغربة والطراءة التى لهذا النوع من الدلالة . والسبب فى
ذلك كله هو ما جبلت النفس عليه ، وعنيت به وجعل لها من
ادراك النسب والوصل والاشتراكات بين الأشياء وما يلحقها

عند ذلك ويعرض لها من انبساط روحاني وطرب » ثم يقول :
وهذا النوع هو جنس متوسط يشتمل على أربعة أنواع •
الأول التببيع • والتببيع هو المدعو الاردا ف • والمدعو عند قوم
التجاوز ، وحقيقته : هو اقتضاب في الدلالة على الشيء بل لازم
من لوازمه في الوجود وتابع من توابعه في الصفة • ونقل عن
صاحب الصناعاتين تعريفا آخر له فقال : « وقال قوم هو أن
يريد الدلالة على ذات معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى
لكن بلفظ هو تابع وردف » ونقل تعريفا آخر يبدو أنه أخذه
من ابن رشيق في « العمدة » مع تصرف يسير في العبارة ثم
ذكر أمثلة له من الشعر نذكر منها قول امرئ القيس في معلقته :

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فانما أراد أن يصفها بالترف والنعمة وقلة الامتهان في
الخدمة وأنها شريفة مكفية المؤونة فجاء بما يتبع ذلك ، وعبر
عن الشيء بلازمه » •

وهذا مما عرف عند البلاغيين بالكناية عن صفة • ويبدو
أن الذي يستحق اسم الكناية هو الكناية عن موصوف فقط بدليل
أنه قسم الاقتضاب الى أربعة أنواع ذكر النوع الأول وسماه
التببيع أو الاردا ف ، وهو الكناية عن صفة كما ذكرنا والنوع
الثاني هو الكناية ، وكل الأمثلة التي ذكرها تحت هذا النوع من
الكناية عن موصوف منها قوله تعالى « وقالوا لجلودهم » يعنى
فروجهم ، وقوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط » والنوع
الثالث : التعريض : وهو اقتضاب الدلالة على الشيء بضمه
ونقيضه يعنى أنك في الظاهر تريد اثبات الحكم لشيء والمراد

نفيه عن ضده ونقيضه فقدماء قيل : « وبضدها تتبين الأشياء »
ومن صورته قوله عز وجل : « ذق انك أنت العزيز الكريم » (١)
وقوله تعالى : « انك لأنت الحليم الرشيد » (٢) ، وهذان المتلآن
ذكرهما البلاغيون للاستعارة التهكمية فقد استعمل اللفظ لضد
معناه فالعزيز الكريم بمعنى الذليل المهان فاستعمل العزة والكرم
للذلة والمهانة بتنزيل التضاد منزلة التناسب واستعمل الحليم
والرشد للخواية والسفاهة ثم اشتق منهما حليم بمعنى غري
ورشيد بمعنى سفيه على التضاد ، وهذا الكلام على سبيل التهكم
والسخرية ولذلك فان هذا الكلام يكون أغبط للمتهكم به ويكون
وقعه على نفسه أشد وآلم من غيره . ومثله قول جرير لشاعر
تسمى زهرة اليمن :

ألم تكن فى وسوم قد وسمت بها
من كان موعظة يا زهرة اليمن

وكان هذا الشاعر قد قال :

أبلغ كلييا وأبلغ عنك شاعرها
أنى الأعز وأنى زهرة اليمن

النوع الرابع : التلويح وهو اقتضاب الدلالة على انشئ
بنظيره واقامته مقامه ، ومن صورته قوله :

تطاول حتى قلت ليس بمنقض

وليس الذى يرعى النجوم بأيب

يعنى الصبح أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيهبب بالماشية.

• (١) سورة الدخان آية ٤٦

• (٢) سورة هود آية ٨٧

على جهة النظر ، وفى التحقيق أنها استعارة مكنية معتمدة على خيال طريف حيث شبه النجوم بالسوائم المنتشرة فى الكلا للرعى ثم حذف المشبه به وهى السوائم ورمز اليها بشئ من لوازمها وهو الرعى ، فالنجوم سوائم ترعى أى كأنها فى انتشارها على رقعة السماء اشبهت السوائم المنتشرة فى الكلا ، ونفى الشاعر عودة الراعى ليرجع بسوائمه الى مرتعها فسوف تظل باقية فى موضعها فى السماء لا تعبأ بهذا الشاعر المهموم ، والمراد من الراعى هنا الصبح حيث تطل علينا استعارة أخرى مكنية : شبه الصبح بانسان يرعى ثم حذف المشبه به ورمز اليه بشئ من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية ، وقرينتها اثبات الرعى للصبح وهى تخيلية وما قاله صاحب المنزع يشير الى الاستعارة المكنية الثانية فى البيت .

النوع الثانى من القسمة الأولى : الابهام ، والابهام هو نوع متوسط تحته نوعان الأول : التنويه ، والثانى : التعمية .

والتنويه : هو الاشارة بذكر الشئ والاعظام والاكبار له ، وهذا النوع له أثره فى البلاغة وله موقعه فى النفس حيث يجعلها تتخيل ما ينطوى عليه اللفظ المبهم من معان كثيرة تذهب فى تصورها النفس كل مذهب ولذلك يقول السلجماسى فى بيان بلاغة هذا النوع وأثره فى النفس : « وذلك لما فى ابهام الشئ من التهويل والاكبار له والتفخيم لشأنه لطموح النفس فيه كل مطمح وذهابها فى شأنه كل مذهب ، والسبب فى ذلك هو ولوع النفس بتصور المعانى وعنايتها بتحصيلها وتفهمها ، فمتى ورد عليها اللفظ . - والألفاظ كما قيل : خدمة المعانى والجسر المنصوب اليها - والى تعريفها - اشرأبت ونزعت الى تصور المعنى المدلول عليه

باللفظ ، فاذا حاولته فانبههم عليها هالها الأمر ، وطمحت فيه .
كل مطمح ، وذهبت في تأويله - لاتساعه - كل مذهب .

ثم يقول : وهذا النوع أى : التنويه - هو جنس متوسط .
تحتة نوعان : الأول : التفخيم ، والثانى : الايماء .

النوع الأول : التفخيم ، وصورته قول الله عز وجل :
« الحاقة ما الحاقة » وقوله تعالى : « القارعة ما القارعة » ومنه
قول الشاعر :

دع عنك نهبا صيح في حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل

ولم يبين السلجماسى حقيقة هذا التفخيم من الأمثلة ،
وهو مستفاد من « ما » الاستفهامية المفيدة للتعظيم وتكرار
الاسم الواقع عليه التعظيم وهو مغن عن الضمير الرابط ،
فكأنه قيل : الحاقة أى شىء هى أنها شىء عظيم مهول لا يكتننه
اللفظ ولا يحيط به الوصف ، ومن ثم تذهب النفس فى تصور
هوله على نحو ما بين السلجماسى من فائدة هذا النوع وبيان
سره البلاغى . والنوع الثانى : الايماء ، وصورته قوله
عز وجل : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » وقول كثير :

● وخلفت ما خلفت بين الجوانح ●

فقوله : « ما غشيهم » و « وما خلفت » ايماء . وبيان ذلك :
أن قوله : « ما غشيهم » يفيد ما أفاده قوله « فغشيهم من اليم »
اذ من المعلوم أنه غشيهم غاش ، فتعين أن المقصود منه التهويل
أى بلغ من هول ذلك الفرق أنه لا يستطيع وصفه ، ويقول

الزمخشري : « هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة ، وقد ذكره البلاغيون في مبحث التعريف أى تعريف بالموصولية تعريف المسند اليه .

النوع الثانى : التعمية . هذا النوع جنس متوسط تحته أربعة أنواع : الأول : اللحن . الثانى : الرمز . الثالث : التورية . الرابع : الحذف .

وقد مثل لهذه الأنواع الأربعة من الشعر فقط .

فأبو محمد القاسم السلجماسى يريد ما يشير اليه اللفظ بلوازمه وعوارضه الدالة على غرض المتكلم وهذا ما يندرج تحته الأنواع الأربعة للجنس الأول وهو الاقتضاب . اذ يكون تحته التتبيع ، والكنائية ، والتعريض ، والتلويح ، أو ما يشير اليه اللفظ المبهم من معان كثيرة تذهب فيها النفس كل مذهب فى تصور مداها . وهذا هو المفهوم من النوعين المتفرعين من النوع المتفرع عن الجنس المتوسط الثانى وهو الابهام الذى تحته نوعان : الأول : التنويه والثانى : التعمية ، والأول : التنويه يتفرع منه : التفخيم ، والايماء ، والتعمية يتفرع منها أربعة أنواع هى : اللحن ، والرمز ، والتورية ، والحذف .

والاشارة الحسية جاءت فى القرآن فى موضعين أولهما : فى سورة آل عمران ما جاء على لسان زكريا - عليه السلام - عندما طلب من ربه أية أى علامة يعرف بها أن امرأته صارت حبلى ليتلقى النعمة عند مجيئها بالشكر قال تعالى : « رب اجعل لى آية قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (١) وانما

خص تكليم الناس دون غيرهم ليعلمه أنه يحبس سره عن القدرة على تكليمهم خاصة مع ابقاء قدرته على التكلم بامر الله وتسبيحه فلا ينقطع قلبه ولسانه عن استحضار عظمته وذكره وتسبيحه شكرا له على هذه المنة العظيمة ، ولذلك قال عقيب الآية السابقة : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار » ، ولما علم المولى عز وجل - أنه لا يمكنه التعسر من الناس في هذه المدة ، وأن له أمورا قد تكون عادية يستلزم قضاؤها الحديث مع الناس ، استثنى سبحانه من لغة التخاطب بالكلام لغة الرمز والاشارة فقال : « الا رمزا » أى الا اشارة بيد أو رأس أو غيرهما يعنى يراد من الرمز الدلالة الحركية للأعضاء الجسمية غير المصحوبة بالكلام للدلالة على شئ ما كما يكلم الناس الأخرس بالاشارة ويكلمهم . وقيل : ان الاستثناء هنا منقطع ، لأن الرمز ليس من جنس الكلام ، اذ الرمز الاشارة بعين أو حاجب أو نحوهما ، فالكلام المراد فى الآية انما هو النطق باللسان لا الاعلام بما فى النفس . وقيل : انه متصل ، لأن الكلام لغة يطلق بأزاء معان الرمز والاشارة من جملتها وأنشدوا شواهد على ذلك منها :

إذا كلمتنى بالعيون الفواتر رددت عليها بالدموع البوار
وقال آخر :

أرادت كلاما فاتقت من رقيبها فلم يك الا ومؤها بالحوارج
وقد استعمل الناس ذلك فقال حبيب :

كلمته يجفون غير ناطقة فكان من رده ما قال حاجبه

وقد اختار الزمخشري هذا الوجه حيث قال : « ولما ادى مؤدى الكلام وفهم منه ما يفهم منه سمي كلاما » .

والموضع الثانى جاء فى سياق قصة مريم عندما طلب منها أن تصوم عن الكلام عندما ترى أحدا من البشر ، وتكتفى بالإشارة ، فعندما اتهموها بالزنا المفهوم من قولهم فيما حكاه القرآن : « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » (١) أشارت اليه كأنها بهذه الإشارة تقول لهم : هو الذى يجيبكم اذا ناطقتموه ، وقيل : لما أشارت اليه غضبوا ، وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا من زناها .

فالإشارة تستخدم وتنزل منزلة الكلام حين يتطلبها المقام ويقتضيها الحال ، فحال زكريا عليه السلام حال شكر على هذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تستلزم عقل اللسان عن كل ما سوى الله ، والانصراف بالكلية الى شكر المنعم بذكره ودوام تسبيحه مدة ثلاثة أيام بلياليها . ولذلك يقول الزمخشري مبينا مدى مطابقة الجواب للسؤال « وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه » (٢) .

أى أحسن الجواب أن يراعى فيه - بعد المناسبة فى المعنى - المناسبة فى اللفظ كما ذكر أنه لما طلب الآية للشكر أجيب بأن آيتك أن تجلس لسانك الا عن الشكر .

والحديث النبوى الشريف قد سلك طريق التصوير

(١) سورة مريم آية ٢٨ .

(٢) الكشف ٤٢٩/١ .

بالإشارة والحركة والرسم فكان لحركته صلى الله عليه وسلم
واشارته أثر كبير فى اجادة الأداء فحركته واشاراته وقعت
موقعها فى النظم النبوى الشريف ، ومن ثم كانت معينة على الفهم
ملفئة للنظر طاردة الشرور والملل مشركة فى المتابعة أكثر من
حاسة فالناظر يرى بالإشارة ويسمع العبارة ، ويذكر كل منهما
بالأخرى فهى تنبه الغافل وتعين على الحفظ والتذكر .

وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يتلقون الأحاديث
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعنون كثيرا بنقل مشاهد
حركته واشاراته صلى الله عليه وسلم ، لأن فى هذه المشاهد
عونا على ادراك أهمية الأمر المشبه اليه بالحركة كقوله
صلى الله عليه وسلم : «التقوى ههنا» وأشار الى صدره
الشريف وكررها ثلاث مرات ففى الإشارة الحسية وتكريرها
وتكرير العبارة دلالة على أهمية القلب لأنه الأساس فى كل عمل
يصدر عن الانسان فمنه تتوجه النيات والمقاصد «انما الأعمال
بالنيات» ، وقد يراد من الإشارة المبالغة فى الوصف كما روى
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ،
فجل ضحكه صلى الله عليه وسلم فى حد التبسم ، وهذا لا يمنع
أن يضحك فى أحوال أخر قليلة ضحكا أعلى من التبسم ، وأقل
من الاستغراق الذى تبدو فيه اللهوات . فقد ضحك النبى
صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعدا الرجل
فأصابه انما كان ذلك سرورا بضحكته فى الرمي ودقة تصويبه .
وقد يراد تأكيد المعنى فى نفوس المخاطبين بالحركة
والإشارة الحسية المشاهدة كما روى عن أبى موسى قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المؤمن للمؤمن كالبنيان
(٣ - الإشارة)

يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ، وهذه الإشارة للدلالة على القوة وتأكيد التماسك الذى ينتج عن اتحاد المؤمنين واجتماع كلمتهم وتعاونهم وتعاطفهم فيما بينهم مما يؤدي الى تقوية بعضهم لبعض . وقد يتدرج الرسول بانتقاله من حال الى حال أخرى حين يحدث لبيان عظم الأمر الذى يحدث عنه وشدة خطره وفداحة ضرره فيغير من جلسته كما فى الحديث الذى روى عن أبى بكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا بلى يا رسول الله قال : « الاشرأك بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : « ألا وقول الزور » فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت » فجلوسه صلى الله عليه وسلم بعد الاتكاء انما كان لبيان عظم ذنب مرتكب قول الزور وللتأكيد على أهمية الموضوع الذى يتحدث فيه ، ولذلك كرر عبارة : « ألا وقول الزور » حتى تمنى أصحابه أن يسكت اشفاقاً عليه .

وقد استخدم صلى الله عليه وسلم أصبعيه السبابة والوسطى للإشارة الى بيان مدى شدة قربه صلى الله عليه وسلم فى الجنة من كافل اليتيم فقد روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار الراوى بالسبابة والوسطى كما فعل صلى الله عليه وسلم .

وفى حديث روى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ، وضم أصابعه وكذلك فإنه يستعمل الإشارة نفسها عندما يريد أن يقرر أن بعثته مقاربة لقيام الساعة ، والقرب والبعد أمور نسبية . عن أنس قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » .

وقد يشير صلى الله عليه وسلم الى فمه ، وذلك حدث عندما كان يتحدث عن موقف الناس يوم القيامة ، وعن مكان ارتفاع بحيرة العرق بالنسبة الى أجسامهم فعن المقداد بن الاسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل » ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق . فمنهم من يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق الجاما قال الراوى : فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه .

وقد يشير صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة ويضعها على الارض ثم ينقلها ، فقد جمع أصابعه فوضعها على الارض ثم قال : « هذا ابن آدم » ثم رفعها فوضعها قبل ذلك قليلا وقال : « هذا أجله » ثم رمى بيده أمامه وقال (وشم أمله) ان هذا التنقل باليد من مكان الى مكان ليصور للمخاطبين قرب الأجل وطول الأمل وبعده ليكون فى هذه الاشارة تأكيد للمعنى وترسيخه فى الذهن وتثبيتته فى القلب .

والحديث النبوى فيه كثير من هذه الاشارات وما ذكرناه انما هى أمثلة قليلة من اشاراته صلى الله عليه وسلم .

وقد يؤكد صلى الله عليه وسلم باشارته على فعل خارق للعادة ، وذلك بوضع السبابة فى الفم اشارة الى الرضاع وذلك فى حديث الثلاثة الذين تكلموا فى المهد فقد كلم الطفل

الرضيع أمه ثم رجع الى الرضاعة فحكى النبي صلى الله عليه وسلم رضاعته بوضع أصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها والاشارة الحسية قد يؤخذ بها في الأحكام الفقهية فقد روى ابن القاسم عن مالك أن الآخرس اذا أشار بالطلاق أنه يلزمه ، وقال الشافعى في الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالآخرس في الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة ذلك جائز اذا كانت اشارته تعرف ، وان شك فيها فهذا باطل ، وليس ذلك بقياس ، وانما هو استحسان (١) .

وقد تكون الاشارة واضحة فيؤخذ بها في العقيدة التي هي أصل الديانة فقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم بإسلام أمة سوداء حين قال لها أين الله ؟ فأشارت برأسها الى السماء فقال : اعتقها فانها مؤمنة ، فقد حكم صلى الله عليه وسلم بإيمانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ، وفي هذا دليل على أن الاشارة يؤخذ بها في سائر فروع الدين من الاحكام الفقهية المختلفة اذا كانت مفهومة وواضحة .

وأما الفقهاء فقد تحدثوا عن الاشارة وجعلوها طريقا من طرق الاستنباط في مجال الاحكام الفقهية ، ولكنهم لم يريدوا بها الاشارة الحسية باليد أو نحوها وانما أرادوا بها ما يشير اليه النظم من معنى لم يسق لأجله لعدم قصد المتكلم له في نفسه ، لكن السامع أو القارئ يعلمه بامعان النظر والتأمل في معنى النظم من غير زيادة عليه ولا نقصان . اذا فهى دلالة تنظيمية

(١) تفسير القرطبي ٢/ ١٣٢٣ .

وهى غير مقصودة للمتكلم بهذا النظم ، وقد ربطوا بينها وبين الإشارة الحسية الحركية المصاحبة للكلام حيث قال الامام الغزالي فى المستصفى : « ووجه تسمية هذه الدلالة اشارة هو أن المتكلم قد يفهم باشاراته وحركته فى أثناء كلامه ما لا يدل عليه نفس اللفظ فيسمى اشارة ، فكذاك قد يتبع اللفظ ما لم يقصد به ويبنى عليه ، وقد سبق أن بينا ما فى قول المرأة عندما رأت بعلها يطحن الرحى بيديه - وهى حالة مهينة عند العرب - فاستفهمت منكرا لما رآته منه فقالت : أبعلى هذا بالرحى المتعاس ؟ ولم تكيف بهذا الاستفهام بل صاحبه بالاشارة الحركية المعبرة عن معنى لا ينهض به الاستفهام فحكى لنا الشاعر حركتها لمشاهدته اياها بقوله : تقول : وصكت وجهها بيمينها أبعلى ... فأعلمنا بهذه الحركة • أولا : مدى قوة استنكارها لما يفعله زوجها • ثانيا : تعجبها من زوجها حين يقوم بهذا الفعل •

وذكر الفقهاء أمثلة للإشارة المستنبطة من النظم منها : ما يشير اليه قوله تعالى : « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى » ما سيق له نظم الآية هو أن امرأة عمران نذرت جنينها لله فطلبت من الله قبول هذا النذر وهذا معنى قد وضعت له عناصر العبارة ولكن يفهم من النظم معان آخر لم يسق النظم لها ولم يقصد اليه المتكلم من ذلك : أن النذر يصح أن يعلق بالخطر وفى المستقبل فيستقيم شرعا أن ينذر العبد ما فى بطن شاته بعد الولادة ، وأن النذر بما جهل نوعه جائز فامرأة عمران نذرت ما فى بطنها ولم تدر نوعه ، وأن للأم مع الولاية على وليدها نصيبا فمن ملك نذر

شئ ملك الولاية عليه - فهذه معان تستنبط من نظم الآية ،
وان لم يكن قد سيق النظم لأجلها .

وقد يشير النص الى حكم فقهي بانضمامه الى نص آخر كما
فى قوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، واذا كانت
مدة الارضاع قد حددت قبل ذلك فى قوله تعالى : « والوالدات
يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » وقوله
تعالى : « وفصاله فى عامين » فان الباقي من الثلاثين شهرا
يعد تمام الحولين هو ستة أشهر فتكون هذه هى أدنى مدة للحمل
وقد فهم ذلك كبار الصحابة حيث فقه الامام على - كرم الله
وجهه - وابن عباس رضى الله عنهما من الجمع بين آية البقرة
وآية الأحقاف أن أدنى مدة الحمل ستة أشهر ، فقد روى
أن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - أمر برجم امرأة قدولدت
لستة أشهر فقال له : على - كرم الله وجهه - قال الله تعالى :
« وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » ، وقال : « وفصاله فى عامين »
وروى أن عثمان - رضى الله عنه - سأل الناس عن ذلك فقال له
ابن عباس مثل ذلك فرجع عثمان الى قوليهما (١) . وضم نص
الى نص آخر لاستنباط معنى منهما باب عجيب لا يتنبه اليه
الا النادر من أهل العلم ، فان الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا
بهذا وتعلقه به . وقد أشار الامام عبد القاهر الى أن هذا من
أسرار البلاغة اذ أنه قائم على النظر فى أمر المعانى كيف تختلف
وتتفق ومن أين تجتمع وتفترق (٢) .

(١) انظر أصول السرخسى ٢٣٧/١ وسبل الاستنباط من الكتاب .

والسنة للدكتور / محمود توقيق محمد سعد من ص ١٨٩ الى ١٩١ .

(٢) دلائل الإعجاز .

وقد ألف بعض علماء الفقه رسائل فقهية حول الإشارة بالأصبع السبابة (المسبحة) وتحريكها في التشهد . منهم :
ابراهيم بن حسين بن أحمد بيرى (١٠٢٣ - ١٠٩٩) هـ فقيه من فقهاء الحنفية بمكة المكرمة تبحر في العلوم وحرر المسائل وانفرد بعلم الفتوى له أكثر من مائة كتاب ورسالة منها :
« رسالة في حكم الإشارة في التشهد » . ومنهم محمد بن عبد رب الرسول من فقهاء الشافعية استقر بالمدينة وتصدر فيها للتدريس له رسالة في الإشارة بعنوان « الاغارة المصبحة على مانعى الإشارة بالمسبحة » ومنهم : محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن عابدين له رسالة أيضا في الإشارة بعنوان : « رفع التردد في عقد الأصابع عند التشهد » .
وللشيخ عبد العزيز بن محمد الصديق الفمارى - من المعاصرين - رسالة تقع في تسع صفحات يرجع فيها الإشارة وعدم التحريك وعنوانها : « الانارة بما ورد في تحريك المصلى أصبعه عند الإشارة » .

وللعامة المحدث الفقيه : ملا على بن سلطان محمد القارى المتوفى سنة ١٠١٤ هـ رسالة في الإشارة بعنوان : « تزيين العبارة لتحسين الإشارة » وبذيله رسالة بعنوان : « التذهين للتزيين على وجه التبيين » وهو بحث فقهى حول الإشارة وتحريكها في التشهد . وقد استدلل الشيخ ملا القارى على حسن الإشارة وتزيينها للعبارة في التشهد عند النطق بكلمة التوحيد من الكتاب والسنة أما أدلتها من الكتاب اجمالا فقوله تعالى :
« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله » (سورة الحشر آية ٧) وقال تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (سورة النساء الآية ٨٠) ومن السنة أحاديث كثيرة

رويت بالفاظ متفقة غالبا وفيها اختلاف فى الألفاظ قليل . نذكر منها : ما روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : كان رسول الله اذا قعد فى التشهد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى ، ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى ، وعقد ثلاثة وخمسين وأشار بالسبابة « (١) » .

وفسر العقد المذكور : بأن يعقد الخنصر والبنصر والوسطى ويرسل الابهام الى أصل المسبحة . وفى رواية : كان اذا جلس فى الصلاة وضع يديه على ركبتيه ورفع أصبعه اليمنى التى تلى الابهام يدعو بها - أى يشير بها - ويده اليسرى على ركبته باسطها عليها « ويرى جمهور الفقهاء أنه يرفع أصبعه السبابة ولا يحركها فقد روى عن عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بأصبعه اذا دعا ولا يحركها رواه أبو داود والنسائى ، وزاد أبو داود : ولا يجاوز بصره اشارته . فهذا يدل على أنه لا يحرك الأصبع اذا رفعها للإشارة الا مرة واحدة . يرفعها عند قول « لا اله » ويضعها عند قول : « الا الله » لمناسبة الرفع للنفى ، وللملاءمة الوضع للاثبات حتى يطابق القول الفعل فى التوحيد والتفريد

الحكمة من الإشارة فى الصلاة :

اختلاف العلماء فى معنى الإشارة فمن ذهب الى عدم التحريك قال : ان الإشارة اشارة الى التوحيد مطابقة للقول تأكيدا له ، وكان ابن الزبير يقول : لم يكن رسول الله صلى الله

(١) مشكاة المصابيح ٢٨٥/١ - ٢٨٩ .

عليه وسلم يحرك مسبحة الا عند اشارته وكان ينوى بها التوحيد والاخلاص .

ومن ذهب الى التحريك قال : هو قمع وطرد للشيطان ، واشتغال عن السهو كما أشار الى ذلك الباجي فى المنتقى ، وعارضه ابن العربي المالكي فى : « عارضة الأخوذى » . وقد علل الدسوقي فى حاشيته على الشرح الكبير (٢٥١/١) بأن تحريكها يذكره أحوال الصلاة ، لأن عروقتها متصلة بنياط القلب ، فاذا تحركت انزعج القلب فيتنبه لذلك ، ومن الأدب فى الصلاة والتزام السكينة والوقار المؤديان الى الخشوع فى الصلاة هو أن المؤمن فى حال جلوسه للتشهد فى الصلاة ينبغي عليه أن لا يجاوز بصره اشارته . وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « ان جزءا من سبعين جزءا من النبوة تأخير السحور ، وتبكير الافطار ، وإشارة الرجل بأصبعه فى الصلاة . »

وذكر الامام مالك - رحمه الله - فى موطئه : أخبرنا مسلم بن أبى مريم عن على بن عبد الرحمن المعاوى أنه قال : رآنى عبد الله بن عمر وأنا أعبت بالحصى فى الصلاة ، فلما انصرفت نهانى وقال : اصنع كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصنع - فقلت : وكيف كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصنع ؟ قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا جلس فى الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى ، وقبض أصابعه كلها ، وأشار بأصبعه التى تلى الابهام ، ووضع كفه اليسرى على فخذه اليسرى . وفى رواية : « خلق الابهام

والوسطى ، وأشار بالسبابة «(١) وعن أبى هريرة قال : ان
رجلا كان يدعو (أى يشير) بأصبعيه فقال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - « أحد أحد » كرر للتأكيد فى التوحيد
أى أشر بأصبع واحدة ، لأن الذى تدعوه واحد سبحانه •
وأصله : وحد أمر مخاطب من التوحيد فقلبت الواو همزة •

(١) انظر : تزيين العبارة لتحسين الاشارة للعلامة ملا على القارى.

القِسْمُ الثَّانِي

التصوير الحركي بالأعضاء الجسمية

المشاهد الحركية

المقصود بالمشاهد الحركية الفعل الحركي الذي يؤديه الانسان بواسطة أعضائه الجسمية للتعبير عما بداخله من المشاعر الانسانية والوجدانات النفسية تجاه الأحداث المتباينة التي تثير شعوره نحو الرضا بشيء ما أو الفرح به ، أو التعجب منه أو تقبله أو انكاره أو النفور منه أو الاستئناس به أو الخوف منه أو الاقبال عليه أو الاعراض عنه أو التهكم به والسخرية منه ، أو اظهار حركة تبدو في الظاهر لتستتر بها ما في الباطن كما هو الحال في شأن المنافقين . أو تصوير حدث معين أو صفة معنوية بصورة حركية تظهر في الأعضاء الجسمية كل هذا يحكيه القرآن وينقله لنا لكي نتصوره لنذكر مداه وبيان مدى تأثيره في جلاء الصورة التي غابت عنا ولم نشاهدها فيكون الشيء المحكى لنا عن طريق المشهد الحركي حاضرا معنا وكأننا نشاهده . وقد تكون الصورة الحركية غير محكية ، وانما قصد النظم القرآني الى ابرازها بواسطة الحركة الجسمية لما في ذلك من تمكينها في النفس وتشبيتها في الذهن « فليس الخبر كالعيان ، ولا الظن كاليقين . وقد يقتصر النظم القرآني على ابراز المشهد الحركي فقط للدلالة على معنى بلاغي وقد تقتزن الحركة الفعلية للأعضاء الجسمية بالعبارة اللفظية للمقصد الى جلاء الصورة وتقريرها وتشبيتها في الذهن حسبما يقتضيه الحال ويتطلبه المقام .

وقبل أن نتناول ما جاء فى القرآن الكريم من هذه المشاهد الحركية نود أن نقف على ما ذكره ابن جنى فى هذا الشأن ومن سار على نهجه كالطوفى البغدادى فى كتابه الاكسير فى علم التفسير ، فان ما ذكره ابن جنى كان هاديا ومرشدا لى لاختيار هذا الموضوع والبحث فيه .

فقد تحدث ابن جنى عن : حكاية الاشارة والحركة ونقل مشاهدتها وأحوالها ممن شاهدها الى ما لم يشاهدها لما فى ذلك من معان وأسرار بلاغية فى الخصائص فقال : « ان للعرب فى قصدهم للدلالة على معانيهم شيئين أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا الا أنه مع أدنى تأمل فى حكم الحاضر معنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها وتضطر الى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئا أو استثقاله وتقبله أو انكاره ، والأنس به أو الاستيحاش منه ، والرضا به أو التعجب منه ، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما فى النفوس . ألا ترى الى قوله :

تقول - وصكت وجهها بيمينها - أبعلى هذا بالرحى المتقاعس
فلو قال حاكيا عنها : أبعلى هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكر صك الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متمجة منكرا لكنه لما حكى الحال فقال : « وصكت وجهها » علم بذلك قوة انكارها وتعاضل الصورة لها ، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها ، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ، ولعظم الحال فى نفس تلك المرأة أبين . وقد قيل « ليس المخبر كالمعاين » ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله : « وصكت وجهها » لم نعرف به حقيقة تعاضل الأمر لها، وليس كل حكاية تروى لنا ولا كل خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة -

كانت به - نعم ولو نقلت اليها لم نفذ بسماعها ما كنا نفيده
لو حضرناها (١) .

فقد علمنا قوة الانكار والتعجب من حكاية مشهد الحركة
وهي صك الوجه التي نقلها اليها الشاعر ، وهو انكار مصحوب
بالألْم لأنها - أى المرأة التي صكت وجهها - رأت زوجها الذى
لم يدخل بها فى حالة مهينة فى نظرها وهى مزاولة الطخن
بالرحى لضيف نزلوا به ، فهذا ما غاب عنا ، ولكنه فى حكم
الحاضر لحكاية الحال ونقل مشاهد الحركة فيها . فالانكار
يتفاوت قوة وضعفا ، والاستفهام فى البيت يدلنا على هذا
الانكار ، ولكنه لا يبين درجته وشدته وعظمه ، والذى أبان عن
ذلك هو حكاية حال المرأة ونقل هذا المشهد لمن لم يره .

والاشارة اليه باسم الاشارة للقريب للدلالة على دنو منزلته
وتحقيره والتصاقه بالتراب يطحن بالرحى شأن الخدم والعبيد .
فقائل هذا البيت هو زوجها الهذلول بن كعب العنبرى وقد
تضمن حكاية قولها وفعلها وهى مذهولة متعجبة من تقاعسه
أمام الرحى ؟ أبغى هذا الذى أراه متقاعسا أمام الرحى ؟ !
فيقول لها : لا تتعجبنى وتبيننى أفعالى الحميدة من البأس
والنجدة والحمية فى غمرة القتال وقد التفت الفوارس
من حولى فأنا الذى أرد القرن فيخر صريعا لوجهه مطعوننا بسنان
ذى حدين فقال ردا على ما قالت وما فعلته :

فقلت لها : لا تتعجبنى وتبيننى

فعالى اذا التفت على الفوارس

ألست أرد القرن يركب ردعه

وفيه سنان ذو غرارين نائس

(١) الخصائص لابن جنى ٢٤٥/١ ، ٢٤٦ .

لعمرو أبيك الخير : انى لخدم
لضيفى وانى ان ركبت لفارس (١)

فالاستفهام هنا انكارى تعجبى وأنه منصب على بعلمها
ولذلك قدمته لهذا الغرض ، ولهذا فانه قد رد عليها بأقوى
ما يكون الرد فطلب منها ألا تتعجل فى الحكم عليه بدنو المنزلة ،
فان منزلته مرتفعة بفعاله الحميدة فى مقارعة الأبطال يوم
النزال (٢) .

ثم أقسم بأبيها رجل الخير أنه لم يفعل ذلك - من الطحن
بالرحى - الا تواضعا لخدمة أضيافه ، وتلك محمدة لا مذمة
وفضيلة لا نقيسة ، وأكد جواب القسم فى الأخبار التى تلتها
بأن واللام واسمية الجملة فى قوله : « انى لخدم لضيفى »
و « انى ان ركبت لفارس » وهذا التأكيد قد وقع موقعه ،
وأصاب محزه لمواجهة شدة انكارها وتعجبها من فعله وهو ادارة
الرحى لطحن الحبوب لأنه فى نظرها فى حالة مهينة تحط من
قدره وتغض من شأنه فواجه هذا الانكار منها بالتأكيد على ضد
ما ظنته به من دنو منزلته ببيان أن هذا الفعل ما زاوله الا

(١) صكت : ضربت . المتقاعس : الذى دخل ظهره وخرج صدره -

القرن المكافى . الردع : الدفع ، ومعنى يركب ردعه أى يخر صريعا
لوجه . ذو غرارين أى ذو حدين ، نائس : مضطرب .

(٢) انظر شرح ديوان الحماسة لأبى تمام ١١٦/٢ ، ١١٧ ، واسم

الاشارة فى القرآن الكريم . مواقعه وأسراره البلاغية رسالة دكتوراه
— للدكتور / محمد عبد المنعم على متولى مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقازيق.

تواضعا لخدمة أضيافه ، وهذا يرفع من قدره ويعلى منزلته
ما دام هذا الفعل وسيلة لاطعام الضيفان فهم كانوا يتمدحون
بالكرم .

وذكر ابن جنى شاهدا يؤدي الى الالباس فى فهم المراد منه
ولا يزيل هذا اللبس الا ذكر جملة الحال وحكايتها كما فى
قول الشاعر :

قلنا لها قفى لنا قالت قاف

فقولها قاف يشير الى معنى تقصده ، ولا يعلم قصدها هنا
هل أرادت بقولها « قاف » رد لقوله وتعجب منه فأعادته على
جهة التعجب أى « قفى لنا » !! أو أرادت الاجابة لقوله قفى لنا
فيكون المراد من قولها « قاف » وقفت أو توقفت . ولكن الشاعر
لو نقل الينا شيئا آخر من جملة الحال فقال مع قوله : « قالت
قاف » (وأمسكت بزمام بعيرها) أو (عاجته علينا) لكان
أبين لما كانوا عليه وأذن على المراد (١) .

وقد ذكر ابن جنى هذا الشطر من البيت فى مكان آخر من
كتابه مستشهدا به على أن الايجاز المحمود لا بد فيه من تركيب
الجملة ليعطيك تمامه وفائدته فان نقصت عن التركيب المطلوب
لها لم يكن هناك استحسان ولا استعذاب بل هناك تعمية والباس
ويرى ابن جنى أن الحمالين والحمامين والساسة والوقادين
ومن يعتد بهم يستوضحون من مشاهدة الأحوال ما لا يحصله

(١) الخصائص لابن جنى ٣٠٧/١ ، ٢٤٦ .

أبى عمرو من شعر الفرزدق إذا أخبر به عنه ولم يحضره
ينشده ، أو لا تعلم أن الانسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به
صاحبه وينعم تصوييره له فى نفسه استعطفه ليقبل عليه فيقول
له : يا فلان أين أنت أرنى وجهك أقبل على أحدثك ، أما أنت
حاضر يا هناء فاذا أقبل عليه وأصغى اليه اندفع يحدثه أو يأمره
أو ينهاه أو نحو ذلك فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة
العين مجزئاً عنه لما تكلف القائل ، ولا كلف صاحبه الاقبال عليه
والاصغاء اليه ولذلك قيل :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها

من العداوة أو ود إذا كانا

أفلا ترى الى اعتباره بمشاهدة الوجوه وجعلها دليلاً على
ما فى النفوس ، وعلى ذلك قالوا «رب اشارة أبلغ من عبارة» .
ثم يقول ابن جنى : فليت شعرى اذا شاهد أبو عمرو
وابن أبى اسحاق ويونس ، وعيسى بن عمر والخليل ، وسيبويه
وأبو الحسن ، وأبو زيد ، وخلف الأحمر والاصمعى ومن فى
الطبقة والوقت من علماء البلدين . وجوه العرب فيما تتعاطاه
من كلامها وتقصد له من أغراضها ألا تستفيد بتلك المشاهدة
وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات ولا تضبطه الروايات
فتضطر الى قصود العرب وغوامض ما فى أنفسهم ، حتى لو
حلف منهم حالف على غرض دلته عليه اشارة لا عبارة لكان عند
نفسه وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه ، غير متهم الرأى
والنحيزة والعقل فهذا حديث ما غاب عنا فلم ينقل اليه ،
وكأنه حاضر معنا مناج لنا (١) .

ومن المعلوم فى باب الحذف أن المحذوف لا بد له من دليل يدل السامع أو القارئ عليه ، وفقد الدليل أو القرينة على المحذوف يؤدى الى الغموض والتعمية • والبلاغة بمنأى عنهما فمن مقاصدها الوضوح والبيان ، ولذلك اشترط البلاغيون لصحة الحذف وجود الدليل سواء أكان دليلا حاليا أو مقاليا ، وقد تعرض ابن جنى للدليل الحالى أى أن الحال المشاهدة دليل على المحذوف فيقول : قد يحذف الفعل لدلالة الحال المشاهدة عليه إذ أن هذه الحال المشاهدة قائمة مقام الفعل نحو ذلك قولك : اذا رأيت قادما (خير مقدم) أى قدمت خير مقدم فنابت الحال المشاهدة مناب الفعل الناصب « (١) » ، فالمحذوف الذى ذلت الحال المشاهدة عليه فى حكم الملفوظ به • فقدمت فى حكم الملفوظ به وان لم يوجد ، لأن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به ، وقولك للقادم من حجه مبرور مأجور أى أنت مبرور مأجور يحذف المبتدأ أو مبرورا مأجورا يحذف الفعل أى قدمت مبرورا مأجورا •

ومن دلالة الحال المشاهدة المعبر عنها بالاشارة أو الحركة ما ذكره ابن جنى عند حذف الصفة فان ما يرى من وجوه القائلين وطريقة نطقهم للكلام بالنبر والتنغيم والتفخيم والتعظيم وغير ذلك ما يقوم مقام الدليل على المحذوف يقول ابن جنى : « وقد حذقت الصفة ودلت الحال عليها • • • وذلك أنك تحس فى كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : « طويل » من قولهم : سبر عليه

(١) الخصائص ٢/ ٣٧١ •

ليل وهم يريدون : ليل طويل ، وأنت تحس هذا من نفسك
إذا تأملتة . وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه
فتقول : كان والله رجلا ! فتزيد فى قوة اللفظ بـ « الله » هذه
الكلمة ، وتتمكن فى تمطيط الالام واطالة الصوت بها أى رجلا
فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك . وكذلك تقول :
سألناه فوجدناه انسانا ! وتمكن الصوت بانسان وتنفخمه
فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك : انسانا سمحا أو جوادا
أو نحو ذلك ، وكذلك ان ذمته ووصفته بالضيق قلت : سألناه
وكان انسانا ! وتزوى وجهك وتقطبه ، فيغنى ذلك عن قولك :
انسانا لئما أو لحزا أو مبغلا أو نحو ذلك (١) وإذا كان
ابن جنى قد شاهد وجوه القوم عند نطق الألفاظ وخبر عاداتهم
فى ذلك فاستخلص منها دلالة الحال على حذف الصفة فنحن
كذلك فى وقتنا الحاضر نشاهد من حديث الناس وطريقة نطقهم
مما يعبر عما فى نفوسهم بالتنغيم والتفخيم وما يظهر على
وجوههم واشاراتهم وحركاتهم ، فأنت تقول : ذهبت الى فلان
اليوم فوجدته انسانا ! وتطيل الصوت فى كلمة انسان ،
ولا تكتفى بذلك بل يظهر على قسماات وجهك واشاراتك ما تريد
أن تعبر عنه ، وهو أنه يحمل كل معانى الانسانية من نبيل
وكرم أخلاق وكرم ضيافة وشهامة ورجولة . الخ . بل انك
- تأكيدا لما تريد أن تعبر عنه - تقول : وجدته انسانا بمعنى
الكلمة .

وقد تأثر الطوفى البغدادي صاحب كتاب « الاكسير فى
علم التفسير » بآين جنى حيث قال : « أما حذف الصفة ،

(١) الخصائص ٢/٣٧٠ ، ٣٧١ .

فانما يحسن اذا ساوق الكلام ما يدل عليها من تعظيم أو تفخيم ونحوه فيجوز «كان زيد والله رجلاً» و «اعتبرت عمراً فوجدته انساناً أى رجلاً فاضلاً ، وانساناً كاملاً لدلالة الحال على تعظيمك له ، ولزوم تحصيل الحاصل من تقدير عدم ارادة الصفة ، ولهذا لو قلت : رأيت رجلاً أو كان زيد رجلاً ولم يقترن به شيء من ذلك لم يفد» (١) •

- وسنتناول - بمشيئة الله تعالى - ما جاء من هذه المشاهد والصور الحركية فى الأعضاء الجسمية بالدراسة التطبيقية فى القرآن الكريم وبيان ما تدل عليه الصورة الحركية المشاهدة من أسرار بلاغية •

حركة اليد وما يتصل بها :

القرآن الكريم صور اليد فى صور حركية فى مواضع متعددة فصور حركة الأصابع وادخالها فى الآذان للدلالة على شدة الرعب من صوت الرعد المفزع ، فى قوله تعالى : «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت • وصور المولى عز وجل حركة عض الأنامل بسبب الغيظ الذى لحق بالمنافقين - وحركة عض الظالم على يديه وحركة السقوط فى اليد - وحركة بسط اليد وقبضها - وحركة اليد واشارتها الى الفم ، وحركة شد اليد بالفل الى العنق - وحركة بسط الكف ... الخ •

أما حركة وضع الأصابع فى الآذان ففى قوله تعالى «يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت » فالتعبير عن

(١) الاكسير فى علم التفسير ص ١٨٨ •

حركة وضع أصابعهم فى آذانهم يؤذن بشدة صوت الرعد المصحوب بالصواعق المهلكة ، لأنهم يدخلون الأصابع كلها .

ومحاولتهم ادخال الأصابع كلها فى الآذان دليل على شدة الرعب والفرع الذى أحاط بهم من كل جانب ، وهم لا يتمكنون من ذلك وانما يمكنهم ادخال بعض الأصابع وهى الأنامل ذفى التعبير مبالغة بذكر الكل وهى الأصابع وإرادة الجزء وهى الأنامل على طريق المجاز المرسل لعلاقة الكلية وقرينته الاستحالة أى استحالة ادخال الأصبع كلها فى الأذن كما قرر البلاغيون ، فقد علمنا مدى شدة صوت الرعد بحركة جعل الأصابع فى الأذن .

فالمقام يستدعى هذه المبالغة عن طريق المجاز المرسل ، لأنهم فى موقف رعب وفرع شديدين خوفا من الموت ، ولك ان تتصور هذا الموقف ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض . فالسحاب فيه ظلمة تحجب نور النجوم السواطع واجتمع مع ظلمة السحاب ظلمة الليل ، وظلمة المطر عليهم ، وهذا هو السر فى جمع الظلمة على ظلمات لحصول أنواع مختلفة منها كما بينا ، أما الرعد والبرق فانه نوع واحد حصل فى السحاب . ولذلك أفرد ولم يجمع .

وجاءت هذه الألفاظ الثلاثة منكرة - ظلمات ورعد وبرق للبدالة على قوتها وشدتها ، كأنه قيل : فيه ظلمات داجية ورعد قاصف ، وبرق خاطف فالمراد أنواع منها وقوله تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » جملة مستأنفة فصلت عما قبلها لثبته كمال الاتصال فكان قائلا قال : « فكيف

حالهم مع مثل ذلك الرعد فقليل يجعلون أصابعهم فى
آذانهم» (١) .

حركة عض الأنامل :

فى قوله تعالى : « واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا
عليكم الأنامل من الفيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات
الصدور » والعض : شد الشيء بالأسنان ، وهو من فعل
المغضب الذى فاته ما لا يقدر عليه ، أو نزل به ما لا يقدر
على تغييره ، وهذا الفعل نتيجة لاضطراب بواطنهم من الانفعال
فتصدر عنهم - أى المنافقين - حركات تناسب ذلك الانفعال
وقد تكون مقصورة عليهم يشفون بها بعض انفعالاتهم ، وهذا
نراه فى حياتنا اليومية نرى الطفل اذا غضب يضرب الأرض
بيديه ورجليه ، وقد يضرب الرجل نفسه من شدة الغضب ،
فالذى يشاهد هذه الحركات وينقلها اليها لنستحضرها فى
أذهاننا انما يقصد ما تشير اليه من المعانى الثانية أو معنى
المعنى ، والله سبحانه وتعالى هو المطلع على بواطن هؤلاء
المنافقين الذين يظهرون للمؤمنين المودة وهم فى الباطن خلاف
ذلك ، ويعلم سبحانه وتعالى ماذا يفعلون اذا خلوا لأنفسهم
بعيدا عن أعين المؤمنين حيث يستحوذ عليهم الشيطان فيجعلهم
يبيتون للمؤمنين ما لا يرضونه من القول والفعل ، فنقل هذا
الفعل الحركى أمام أعيننا لنتصوره ونعرف ماذا يقصد منه
وهو الكناية عن شدة الغيظ والتحسر ، ومنه قول أبى طالب :

« يعضون غيظا خلفنا بالأنامل » .

(١) انظر : مفاتيح الغيب للرازي ٤٦٢/١ .

وقال حارث بن ظالم المري :

فأقبل أقوام لئام أذلة

يعضون من غيظ رؤوس الأباهم

وقال آخر :

إذا رأوني أطال الله غيظهم

عضوا من الغيظ أطراف الأيامهم

والغيظ : غضب شديد قد يلزمه ارادة الانتقام . ولما لم
يمكنهم الانتقام من المؤمنين لأن الله تعالى يطلع المؤمنين على
أفعالهم ويفضح سرائرهم قال الله تعالى مخاطباً رسوله « قل
موتوا بغيظكم » أى قل لهم يا محمد والأمثالهم ممن يتصف
بالغيظ والحنق على المسلمين « موتوا بغيظكم » فهو خطاب عام
لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهو دعاء عليهم
بالموت بالغيظ ، يلزم منه ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم ان
حالت أو قصرت ، أى أن الدعاء عليهم بالموت كناية عن لزوم
الغيظ لهم ، وهذا المعنى الكنائى يلزم منه كناية (١) أخرى
وهى دوام سبب غيظهم وهو حسن حال المسلمين وانتظام
أمرهم وازدياد خيرهم (٢) ويقول الزمخشري : ويجوز أن
لا يكون ثم قول ، وأن يكون قوله : « قل موتوا بغيظكم أمراً
لرسول الله صلى الله عليه وسلم بطيب النفس وقوة الرجاء

(١) واليك مزيداً لايضاح الكناية عن الكناية هو أن الموت بالغيظ

كناية عن ملزومه وهو ازدياد غيظهم الى درجة الهلاك ، وعبر بازدياد غيظهم

الى درجة الهلاك عن ملزومه وهو اعزاز الاسلام وعلوه وارتفاع شأنه .

(٢) التحرير والتنوير ٦٧/٤ بتصرف .

والاستبشار بوعد الله أن يهلكوا غيظا باعزاز الاسلام واذلالهم به ، كأنه قيل : حدث نفسك بذلك (١) وعلى هذا لا يكون أمرا للرسول بتبليغ قوله : موتوا بغيظكم اليهم أو الى كل من يتصف بالغيظ على المسلمين ، وانما المعنى طيب نفسك وأبشروا علم انهم يموتون بغيظهم .

حركة عض اليدين :

فى قوله تعالى « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » .

هنا يعرض المولى عز وجل مشهدا من مشاهد يوم القيامة يصور فيه ندم الظالمين الضالين ، فالموقف أشد هولا والحسرة أشد ألما والندم بلغ منتهاه ، ولذلك صورت حركته بصورة أقوى وأشد من سابقه وهو عض الأنامل غيظا وحسرة ففى هذا السياق لا يعض أنامله فقط ولا يعض يدا واحدة لأنها لا تشفى ما به من شدة الحسرة والندامة وانما هو يعض على يديه معا يداول بيز هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من هول الموقف اذ النفس هنا والهة مكروبة يحيط بها العذاب من كل جانب فتتذكر ما حدث لها فى الدنيا فتندم أشد الندم - ولات ساعة مندم ، فيجسم حالته النفسية التى هى فى قمة انفعالها وثورتها وندمها على ما فات بعض اليدين لبيان مدى الحسرة والندم ، وشدة التفجع بعد فوات الأوان . . وانظر الى قوله تعالى : « ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » تجد مدى

(١) الكشف ٤٥٩/١ .

تعلق النفس بما فات وهيئات أن يستدرك بل من المحال وذلك بأسلوب التمنى المصدر بالتداء وليس مراداً به النداء ، وإنما المراد به التنبيه على مدى الخسران الذى لحق به عندما حاد عن طريق الرسول ، وهنا نجد أسلوب الترقى فى الندم من حالة الى حالة أخرى أشد منها اذ يكون أشد حدة من سابقه فيقول : « يا ويلتى ليتنى لم آتخذ فلانا خليلاً » لأنه هنا ينادى فيه ويلته يعنى هلاكه يقول لها تعالى فهذا أوانك ، وفى قوله : فلانا بدون تحديد شخص معين كناية عن صاحب السوء أيا كان فيشمل كل صاحب سوء صده عن سبيل الرسول ، وأضله عن ذكر الله تعالى .

حركة السقوط فى اليد :

فى قوله تعالى : « ولما سقط فى أيديهم » هذا التعبير كناية عن شدة الحسرة والندم أى ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، وبيان ذلك أن الندم حدث يحصل فى القلب ، وأثره يظهر فى اليد ، لأن النادم يعض يده كما مر فى الآية السابقة أو يضرب احدى يديه على الأخرى كقوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها » .

فتقليب الكف عبارة عن الندم فالندام يقلب كفيه ظهراً لبطن ، ولما كان أثر الندم يحصل فى اليد كما بينا أضيف سقوط الندم الى اليد ، لأن الذى يظهر للعيون من فعل النادم هو تقليب الكف وعض الأنامل واليد كما أن السرور معنى يحصل فى القلب يستشعره الانسان ، ويظهر على المرء من انفراج أسارير وجهه ، ومن حالة الاهتزاز والحركة والتبسم أو الضحك وما يجرى مجراه . وعبر بالسقوط فى

اليَد لأن من اشتد ندمه وحسرتَه أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطة فيها لأن فاه قد وقع فيها ، وقيل : من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدا عليها ، ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه ، فكأن اليَد مسقوطة فيها (١) .

وخصت اليَد بالذكر ، لأن مباشرة الذنوب بها ، فاللائمة ترجع عليها ، لأنها هي الجارحة العظمى ، فيسند اليها ما لم تباشر كقوله : « ذلك بما قدمت يداك » (٢) ، وكثير من الذنوب لم تقدمه اليَد .

وقرىء « سقط » بالبناء للفاعل أى وقع العض فيها على معنى سقط الندم فى أيديهم والمراد فى قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون فى اليَد تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس بما يحصل فى اليَد ويرى بالعين » (٣) وخصت اليَد بالذكر لأن مباشرة الذنوب بها ، فاللائمة ترجع عليها ، لأنها هي الجارحة العظمى فيسند اليها ما لم تباشر كقوله تعالى : « ذلك بما قدمت يداك » وكثير من الذنوب لم تقدمه اليَد ، واليَد تستعار للقوة وأنصرة اذ بها يضرب بالسيف والرمح كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « وهم يد على من سواهم » أى قوة متماسكة متآلفة ، وهى آلة القدرة قال تعالى : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » أى أنه عليه السلام ذو قوة ولكنه كان أوابا

(١) انظر الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي

• ٤٦٣/٥

(٢) الآية ١٠ من سورة الحج .

(٣) الكشاف ١١٨/٢ .

أى رجاءا الى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار» (١)
وهذا التركيب لم يسمع قبل القرآن ولم تعرفه العرب •

وقد يكون هذا التركيب كناية عن فقد الحيلة فى دفع أمر
هو بصدده أى ولما رأى بنو اسرائيل أنهم صاروا - بهذه
النكسة - الى موقف لا يملكون دفعه فقد وقع منهم •• وانتهى (٢)
فعلوا هذا تعبيرا عن فقد الحيلة ، والندم على فوات أمر لا يمكنهم
استدراكه • ولذلك تأتى الجملة التالية مشخصة لضلالتهم كأنهم
أبصروا بعيونهم فى قوله تعالى : « ورأوا أنهم قد ضلوا » بمعنى
أنهم تيقنوا من ضلالتهم لأنه صار فى صورة الشئ المشاهد
المحسوس ، وهنا ينسجم النظم وتتناسق التراكيب فى تصوير
الأشياء المعنوية فى صورة حسية مشاهدة •

بسط اليد وقبضها :

فى قوله تعالى : « اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم »
المائدة : ١١ •

نزلت هذه الآية فى قوم هموا بأن يغدروا برسول الله
صلى الله عليه وسلم وبالمسلمين يوم الحديبية بأن يأخذوهم على
أغرة فأوقعهم الله أسارى فى أيدي المسلمين ، وحركة بسط اليد
فى هذا السياق كناية عن البطش والاعتداء أى هموا بأن
يبطشوا بكم ويعتدوا عليكم فحماكم الله منهم ، ويقول الأستاذ
سيد قطب : « ان صورة وحركة بسط الأيدي وكفها أكثر حيوية
من ذلك التعبير المعنوى الآخر ، والتعبير القرآنى يتبع طريقة

(١) فى ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٣ •

(٢) فى ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٤ •

الصورة والحركة لأن هذه الطريقة تطلق الشحنة الكاملة في التعبير كما لو كان هذا التعبير يطلق للمرة الأولى مصاحباً للواقعة الحسية التي يعبر عنها مبرزاً لها في صورتها الحية المتحركة ، وتملك طريقة القرآن (١) وقد يجتمع بسط اليد واللسان في ايقاع الأذى والتنكيل بالمسلمين كما في قوله تعالى: « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » (٢) ونلاحظ في هذا الأسلوب الترقى والتدرج من حالة الى حالة أخرى أشد منها، حيث عطف تمنيتهم الارتداد الى الكفر على بسط اليد واللسان بالأذى والسوء ، فالذى يود له أن يخسر هذا الكنز العزيز كنز الايمان ويرتد الى الكفر هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان وبهذا يتدرج القرآن في تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائهم وأعدائهم حتى يصل الى قمته بقوله لهم عنهم : « وودوا لو تكفرون » (٣) ونلاحظ أنه أتى بفعل الودادة ماضياً دلالة على تحقق ذلك منهم وأنه شيء مركوز في نفوسهم منذ بداية الدعوة .

ويصور الله عز وجل موقف الظالمين وقت معالجة سكرات الموت ، والملائكة أمامهم مسلطون عليهم يعجلون في اخراج أرواحهم من أبدانهم بشدة فيبسطون اليهم أيديهم قائلين هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والالحاح والتشديد في الازهاق من غير تنقيس .

(١) في ظلال القرآن ٨٥٥/٢ .

(٢) المتحنة آية ٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٥٤١/٦ .

وامهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده الى من عليه الحق ، ويعنف عليه فى المطالبة ولا يمهله ، ويقول له أخرج الى ما لى عليك الساعة ولا أريم مكانى حتى أنزعه من احداقك (١) . فى قوله تعالى : « ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم (٢) »

وما قاله الزمخشري يجرى على طريقة التمثيل أى مثلت حال الملائكة فى انتزاع أرواح الظالمين فى عنف وشدة بحال فعل الغريم الذى يعنف من عليه الحق له فيطالبه بحقه ولا يمهله ولا يكف يده عن البسط حتى يؤدى ما عليه من دين ، ولذلك أثر التعبير القرآنى اسم الفاعل على الفعل لما فى ذلك من الثبوت والاستمرار . وقد يكون هذا التعبير كناية عن العذاب الذى يلحقهم عند قبض أرواحهم ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم (٣) » ومعنى أخرجوا أنفسكم على هذا التفسير : خلصوها من العذاب ان أمكنكم فالأمر هنا للمتعبين والتوبيخ ، ويكون التعبير باسم الفاعل هنا لافادة ثبوت العذاب ودوامه ، وأنه لا ينفك عنهم عند النزاع وبعده فى البرزخ ويوم القيامة ، ونظيره فى الثبوت والاستمرار قوله تعالى : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » أى أن ذراعيه على هذه الهيئة من البسط مدة مكث أهل الكهف لا يزاول شيئاً غيرها فهو ثابت على هذه الهيئة الجامدة .

(١) الكشف ٣٦/٢ .

(٢) الأنعام : ٩٣ .

(٣) سورة الأنفال : ٥٠ .

أما حركة بسط الكف فقد تعرض لها المولى عز وجل شئ
هيئة ممثلة كما فى قوله تعالى : « والذين يدعون من دونه
لا يستجيبون لهم بشئ الا كباسط كفيه الى السماء ليبلغ فيه وما
هو ببالغ » ، وهذه الآية تصور المشركين الذين يجأرون بالدعاء
الى من لا ينفعهم ولا يضرهم الا باذن الله ، وهى صورة حسية
مشاهدة فالذين يدعون من دون الله الأصنام لا تستجيب لهم
بشئ الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى السماء يطلب منه أن
يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفه ولا بعطشه وحاجته اليه ،
ولا يقدر أن يجيب دعاؤه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد
لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ، ولا يقدر أن يجيب
دعاءه » (١) وهذه الصورة المحسوسة المتحركة تؤكد الكلام
السابق ، وهو عدم استجابة هذه الأصنام اليهم بشئ ، لأنها جاءت
على صورة الاستثناء اذ ينوهم السامع قبل تمام الجملة المستثناة أن
هناك نوعاً من الاستجابة حتى اذا ما اكتملت الجملة وتدبر معناها
عرف مدى خيبة الأمل وعدم الاستجابة بشئ ما فيتأكد هذا
المعنى فى ذهن السامع أو المخاطب لأنه كرر مرتين الأولى فى
صورة عقلية غير ممثلة فى قوله تعالى : « لا يستجيبون لهم بشئ »
والثانية فى صورة حسية مشاهدة ممثلة ، ولا شك أن هذا
التأكيد بالتكرار والتمثيل يقتضيه المقام ، لأن الكفار كانوا
يعتقدون جدواها سواء فى اىصال النفع اليهم مباشرة أم فى
كونها تقربهم الى الله كما قال تعالى : « ما نعبدكم الا ليقربونا
الى الله زلفى » ويذكر الزمخشري وجها آخر للتمثيل فيقول :
« وقيل : شبهوا فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يعرف

(١) الكشف ٢/ ٣٥٤ .

الماء بيديه ليشر به فبسطهما نأشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئاً ، ولم يبلغ طلبته من شربه (١) وهذا الوجه له نظير في كلام العرب ، فيضرب قبض الماء باليد مثلاً لمن يسعى في أمر ويؤمل في حصوله ولكنه لا يدركه كما قال الشاعر في بيان مقدار خيبة أمله في وصل ليلي :

فأصبحت من ليلي الغداة كقايض

على الماء خائنته فزوج الأصابع

وبسط اليد يستعمل في القرآن للدلالة على الجود والسعة عن طريق الكناية لأنه يلزم من بسط اليد مداها بالانفاق كما في قوله تعالى : « بل يداه مبسوطتان » وقد جاء التعبير باسم المفعول للدلالة على ثبوت البسط واستمراره الذي يلزم منه دوام الانفاق ، ولم يكتف التعبير ببسط يد واحدة ، وإنما يداه مبسوطتان . أما إذا أضيف اللفظ العموم الى بسط اليد فاته يكون كناية عن الاسراف والتبذير وهو مذموم لأنه هنا أطلق يده في كل ماله فضيعه قال تعالى : « ولا تبسطها كل البسط » وإذا كان البسط المقيد بلفظ العموم منهيًا عنه فإن غل اليد الى العنق منهي عنه أيضاً وهو كناية عن البخل أو أنه مجاز عنه أى استعارة تمثيلية وهى فى غاية الدقة ، لأن البخل يمنع حبه للمال من الانفاق كما أن اليد المغلوطة الى العنق يمنعها الغل من التصرف فى المال . ويقول الأستاذ سيد قطب : « والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير في رسم البخل يداً مغلوطة الى العنق ، ويرسم الاسراف يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً

والمطلوب انما هو الاعتدال فى الانفاق والتوسط فيه وقبض الأيدي كناية عن البخل والشح كما فى قوله تعالى : « ويقبضون أيديهم » فى بيان صفات المنافقين ، لأنه يلزم من قبض أيديهم عدم الانفاق ، ويلزم منه البخل والشح ، وهذا المعنى يقابل ما ذكره الله بعد ذلك من صفات المؤمنين وهى ايتاء الزكاة ، لأن اتيان الزكاة يستلزم الانفاق والجود ، وهما يقابلان البخل والشح .

ونسيانهم لله يتضمن أيضا كناية عن أنهم لا يفكرون قط فى الاتجاه الى أى خير .

ويقابل بسط اليد كونها مغلولة الى العنق .

حركة اليد وإشارتها الى الفهم :

فى قوله تعالى : « ألم يأتكم نبيؤ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب » (١) .

اختلف المفسرون فى تأويل قوله تعالى : « فردوا أيديهم فى أفواههم » ومرجع اختلافهم الى مدلول تلك الحركة الجسمية والى مرجع الضمائر فى الآية : فضمير الرفع فى قوله : « فردوا » يرجع الى الكفار ، أما ضمير الجر بالاضافة فى « أيديهم وأفواههم » فانهما قد يرجعان الى الكفار وقد يرجعان الى الرسل أو يرجع الضمير فى « أيديهم » الى الكفار والضمير فى « أفواههم » الى الرسل فهذه ثلاثة احتمالات :

(١) سورة ابراهيم الآية : ٩ .

الأول : أن يرجعوا الى الكفار وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنهم عضوها غيظا من شدة نفرتهم من رؤية الرسل واستماع كلامهم .

وثانيها : أنهم لما سمعوا كلام الأنبياء تعجبوا منه غاية التعجب ، ووضعوا أيديهم على أفواههم ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك .

وثالثها : أنهم أشاروا بأيديهم الى جوابهم أى محل نطقهم بالجواب وهو قولهم : « انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب » فجوابنا هو ما نقوله بأفواهنا وما نطقت به ألسنتنا ، فلم يكتفوا بالجواب القولى بل قرروه بالإشارة الحسية بوضع أيديهم فى أفواههم أى فلا جواب عندهم غيره . وهذا أقوى الوجوه عند الزمخشري حيث علق عليه بقوله : وهذا وجه قوى ، وبيان القوة فى هذا الوجه هو أن المقام يقتضيه والسياق يدل عليه فهم لما حاولوا الانكار على الرسل كل الانكار جمعوا فى الانكار بين الفعل والقول ، ولذلك أتى بالفاء فى قوله : « فردوا » تنبيها على أنهم لم يمهلوا بل عقبوا دعوتهم بالكذب ، وصدروا الجملة بان المؤكدة ، وعطف جملة : وقالوا . . على جملة : « فردوا أيديهم فى أفواههم » للدلالة على أن المراد بقوله : « فردوا » اشارتهم الى أفواههم لتتصل الإشارة بالقول ، والظرفية فى قوله : « فى أفواههم » على الوجه الأول على حقيقتها وفى الوجهين الثانى والثالث بمعنى « على » .

ورابعها : أنهم وضعوها على أفواههم مشيرين بذلك الى

الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا ، كما يفعل أحدنا عندما يريد أن يسكت غيره فإنه يضع يده على فمه مشيراً بأصبع السبابة •

الاحتمال الثانى : أن يرجع الضمير فى أيديهم الى الكفار وفى أفواههم الى الأنبياء وفيه وجهان :

الأول : أنهم أشاروا بأيديهم على أفواه الرسل أن اسكتوا
الثانى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل منعاً لهم من الكلام •

الاحتمال الثالث : وهو أن يعود الضميران الى الرسل ويكون المراد بالأيدى منعهم من مواعظهم ونصائحهم : أى أن الأيدى بمعنى الأيادى لأن الأيدى غلبت فى النعم والأيدى فى الجوارح ويكون ردها الى أفواههم من قبيل التمثيل أى الاستمارة التمثيلية فيشبه حال الكفار فى ردهم مواعظ الرسل ونصائحهم ببرد الكلام الخارج من النـم الى الفم بمعنى أنه لا يتجاوز الحيز المحيط بالفم فلا يصل الى آذانهم ، وقد كانوا يفعلون ذلك فى مواجهة الأنبياء كما حكى القرآن عن فعلهم وحركتهم مع نوح عليه السلام فى قوله تعالى : « وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » (٢) فيكون فعلهم هذا تمثيلاً لرد كلامهم فى أفواههم والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، والمراد بردهم أباؤها وعدم قبولهم لها ، وفى هذا الاحتمال وجه آخر وهو أن الكفار أخذوا

أيدي الرسل ووضعوها على أفواههم ليقطعوا كلامهم ، وعلى هذا الوجه :

المراد باليد والفم حقيقتهما • أى الجارحتان ، وعلى الأول هما مجازان • وهذا الوجه فيه بعد وتكلف فلا يعقل أن يتناول الكفار على الرسل بهذه الحركة المهينة ، وإن كان يمكن تصور أن يضع الكفار أيديهم على أفواه الرسل يمنعونهم بذلك من الكلام ، وهذا الوجه وإن كان بعيدا أيضا إلا أنه أقل من سابقه بعدا •

وقال أبو عبيدة : هو ضرب مثل أى لم يؤمنوا ، ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب قد رد يده فى فيه ، وقال الأخفش أيضا ، ونقل القرطبى عن القتبى رده على أبى عبيدة فقال : لم نسمع أحدا من العرب يقول : رد يده فى فيه إذا ترك ما أمر به ، وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنقا وغيظا لقول الشاعر :

تردون فى فيه غشى الحسود د حتى يعض على الأكفا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه وكفيه (١) والشيخ محمد الطاهر بن عاشور يقول : إن هذا التركيب من مبتكرات القرآن فلا أعهد سبق مثله فى كلام العرب ، ويرى أن هذا التركيب يحتمل عدة وجوه كما ذكر صاحب الكشف واستخلص منها وجها رآه أولى بالقبول ، وهو أن يكون المعنى أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم اخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم وذلك تمثيل لحالة

(١) انظر : تفسير القرطبى ٣٥٧٥/٥ •

الاستهزاء بالرسول ، وآثر النظم لفظ الرد للدلالة على تكرار هذا الفعل منهم أي أنهم يضعون أيديهم على أفواههم ثم يزيلونها ثم يعيدونها كما كانت مرة ثانية وهكذا فتلك الاعداء رد وحرف « في » للظرفية المجازية المراد بها التمكن فهي بمعنى « على » كقوله تعالى : « أولئك في ضلال مبين » وعطفه بفاء التعقيب مشير إلى أنهم بادروا برد أيديهم في أفواههم فور تلقيهم دعوة رسولهم وعلى هذا يكون رد الأيدي في الأفواه تمثيلا لحال المتفجرب المستهزئ بالكلام تمثيل للحالة المعتادة ، وليس المراد حقيقته (١) .

ويرى المرحوم سيد قطب في دلالة حركة اليد في الفم معنى لم يذكر فيما سبق وهو أن حركة اليد أمام الفم فيها دلالة على الجهر بالتكذيب والافحاش في هذا الجهر باتيانهم بهذه الحركة الغليظة التي لا أدب فيها ولا ذوق امعانا منهم في الجهر بالكفر كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد بتحريك كفه أمام فمه ، وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع (٢) ، وهذا الرأي فيه بعد أيضا لأن الحركة التي يفعلونها ليست في الأفواه ولا على الأفواه ، وإنما هي أمامها ، وكلمة « في » لا تدل على هذا المعنى لا حقيقة ولا مجازا ، هذا بالإضافة إلى أن رفع الصوت بهذه الكيفية لا يفيد معنى جديدا في الجهر بالكفر ، فرفعهم الصوت جهرا بالكفر من غير هذه الحركة يستوى مع جهرهم به مع اتيانهم بهذه الحركة .

والفخر الرازي ذكر الأوجه السبعة التي ذكرها الزمخشري

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/٢٠٩٠ .

ثم أضاف ثلاثة أوجه مجازية يقول : أما على القول بأن ذكر اليد والضم توسع ومجاز ففيه وجوه :

الوجه الأول : نقله عن أبي مسلم الإصفهاني قال : المراد باليد ما نطقت به الرسل من الحجج ، وذلك لأن اسماع الحجة انعام عظيم ، والانعام يسمى يد ، يقال لفلان عندي يد اذا اولاه معروفا ، وقد تذكر اليد والمراد منها صفقة البيع والعقد كقوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » (١) فالبيانات التي كان الأنبياء عليهم السلام يذكرونها ويقررونها نعم وأياد ، وأيضا اليهود التي كانوا يأتون بها مع القوم أياد ، وجمع اليد في العدد القليل هو الأيدي ، وفي العدد الكثير هو الأيادي فثبت ان بيانات الأنبياء عليهم السلام وعهودهم صح تسميتها بالأيدي ، واذا كانت النصائح والعهود انما تظهر من الفم فاذا لم تقبل صارت مردودة الى حيث جاءت ، ونظيره قوله تعالى « اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » (٢) فلما كان القبول تلقيا بالأفواه عن الأفواه كان الدافع ردا في الأفواه .

الوجه الثاني : أن المراد من هذه الحركة : هو السكوت عن الجواب يقال للرجل اذا أمسك عن الجواب رد يده في فيه اذا سكت عنه فلم يجب ، وهذا الوجه مردود لأن قوله تعالى بعد ذلك « انا كفرنا بما أرسلتم به » يرده ، فهم قد أجابوا بالتكذيب ، ولم يسكتوا عن الجواب .

الوجه الثالث : المراد من الأيدي : نعم الله تعالى على

(١) سورة الفتح الآية : ١٠

(٢) سورة النور آية : ١٥

ظاهرهم وباطنهم ولما كذبوا الأنبياء فقد عرضوا تلك النعم
للازالة والابطال ففعله تعالى « ردوا أيديهم في أفواههم » أى
ردوا نعم الله تعالى عن أنفسهم بالكلمات التى صدرت عن
أفواههم • ولا يبعد حمل « فى » على معنى « الباء » لأن حروف
الجر لا يمتنع إقامة بعضها مقام بعض •

فقد تبين مما سبق كثرة الوجوه والاحتمالات فى تفسير
مدلول تلك الحركة الجسمية ، منها ما هو ضعيف وما هو قوى ،
ونرى أن تعدد الأوجه القوية فى مدلول الآية يعطى ثراء فى
المعنى مادامت تلك الأوجه لا يتعارض بعضها مع بعض ، فإن
القرآن الكريم حمال أوجه يعجز البشر عن الاتيان بها فى تركيب
واحد مما يدل على سمو بلاغته واعجازه •

وأضاف الشريف الرضى وجهاً آخر غير الوجه الذى
أجراه على الاستعارة وقاسه على ما فعل قوم نوح عليه السلام
عندما كان يدعوهم الى الايمان بأن يسدوا أسماعهم بأيديهم ،
ويستغشوا ثيابهم حتى لا يراهم ولا يرونه كما حكى الله تعالى عن
نوح مع قومه : « وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم
فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » (١)
فاذا كانوا قد سدوا أسماعهم بوضع أصابعهم فى آذانهم حتى
لا يسمعوا ما يقوله فلا مانع عندهم أن يمسكوا أفواههم بأكفهم
كما يفعل المظهر للامتناع من الكلام ليدلوهم بذلك الفعل على
أنهم لا يصغون لهم الى مقال ولا يجيبونهم عن سؤال
اذ قد أبهموا طريقي السماع والجواب وهما الآذان والأفواه ،
ويكون رد الأيدى هنا دالا على تكرار هذا الفعل منهم وكثرت

(١) سورة نوح الآية ٧ •

الأنهم كانوا يكثرون هذا الفعل عند كلام الرسل عليهم السلام
وبدليل قوله تعالى « كلما » الدالة على هذا المعنى فى قوله تعالى
« وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم . . . » (١) .

حركة شد اليد بالغل الى العنق :

الغل هو طوق أو قيد تشد به اليد الى العنق . وقد ورد
لفظ الأغلال جمعا فى ستة مواضع فى قوله تعالى : « ويضع
عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الأعراف : ٥٧)
وفى قوله تعالى : « أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال
فى أعناقهم » (الرعد : ٥) وفى قوله تعالى : « وجعلنا الأغلال
فى أعناق الذين كفروا » (سبأ : ٢٣) وفى قوله تعالى : « اذ
الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون » (غافر : ٧١) وفى
قوله تعالى : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم
مقمحون » (يس : ٨) وفى قوله تعالى : « انا اعتدنا للكافرين
سلاسل وأغلالا وسعيرا » (الانسان آية : ٤) وورد اللفظ على
صيغة اسم المفعول فى موضعين أحدهما فى المائدة فى قوله
تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » (آية ٦٤) .

وثانيهما فى سورة الاسراء فى قوله تعالى : « ولا تجعل
يدك مغلولة الى عنقك » (آية ٢٩) . وسنتناول هذه المواضع
بالبیان والتفسير وما تدل عليه الحركة من معان بلاغية
يتطلبها السياق ويقتضيها المقام .

فآية الأعراف جاءت لبيان صفات محمد عليه الصلاة

(١) انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن ص ١٢٧ .

والسلام ومن بينها رفع الأثقال والأغلال التى علم الله انها ستفرض عليهم بسبب معصيتهم أو قد يكون المراد : رفع الشدائد التى كانت فى عباداتهم كقطع أثر البول ، وقتل النفس فى التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وجعلها الله أغلالا ، لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن الغل يمنع عن الفعل ، فهى استعارة تصريحية للتشديد فى المحرمات هذا على أن العطف فى قوله تعالى : « والأغلال التى كانت عليهم » عطف تفسيرى .

وبعض المفسرين جعله للمغايرة فالمراد من وضع الاصر : رفع التكاليف الشاقة والهرج فى الدين ، أما الأغلال فالمراد منها الاذلال والاهانة وعلى هذا يكون فيها استعارة تمثيلية شبه حال المحرر من الذل والاهانة بحال من أطلق من الأسر ، وهذا على تفسير الغل بأنه اطار من حديد يجعل فى رقبة الأسير والجانى والزمخشري يرى أيضا انها استعارة تمثيلية على وجه آخر فيقول : وكذلك الأغلال مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة نحو : بت القضاء بالقصاص عمدا كان أو خطأ من غير شرع الدية ، واحراق الغنائم ، وتحريم السبب وغير ذلك . وقيل : ان الغل فى الآية على الحقيقة فروى عن عطباء أن بنى اسرائيل كانت اذا قامت تصلى لبسوا المسوح فغلوا أيديهم الى أعناقهم ، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة ، وأوثقها الى السارية يحبس نفسه على العبادة (١) .

وحركة الأغلال فى الأعناق فى سورة الرعد قد يكون

(١) الكشف ٢/ ١٢٢ .

مراداً بها الحقيقة ، وقد يراد بها المجاز ، فإن تعلق قوله تعالى « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » بما قبله بأن يكون وصفاً لهم بجانب وصفهم بالكفر ، وفيه الدلالة على امتناعهم عن الايمان ، واصرارهم على الكفر يكون الكلام حينئذ جارياً على المجاز لأن فيه بيان حالهم فى الدنيا شبه حالهم فى الاصرار على الكفر وعدم التفاتهم الى الايمان بحال جماعة فى أعناقهم الأغلال بحيث لا يمكنهم الالتفات ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، وإن تعلق بما بعده بأن يكون من جملة الوعيد أى أن قوله تعالى « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وعيد وقد عطف على ما قبله فيكون وعيداً مثله تكون الأغلال اذا جارية على حقيقتها ، وتكرير أولئك وعطفه بالواو لاستقلال كل من العذابين وشدته ، فالعذاب الأول يحمل معنى الذل والاهانة وهو عذاب نفسى أليم والعذاب الثانى عذاب جسمانى أشد ألماً لما فيه الاحراق بالنار وملازمة لهم ملازمة الصاحب لصاحبه الذى لا يفارقه . وهذا الوجه أرجح من سابقه ، لأن « أولئك » الأول وارد للاشعار بأن ما بعده جدير بمن سبق لاتصافهم بصفة الانكار للمحشر فى قوله تعالى : « انذا كننا تراباً انا لفى خلق جديد » ففى الجملة الأولى حكم عليهم بالكفر فى الدنيا ، وذكر فى الجملة الثانية ما يؤولون اليه فى الآخرة على سبيل الوعيد فقال : « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » ، ثم ذكر فى الأمر الثالث ما يستقرون عليه فى الآخرة من ملازمة النار لهم ، وفى تكرار اسم الإشارة أيضاً دلالة على تهويل العذاب كما أن فيه دلالة على تقرير تلك الصفات وتأكيد اثباتها للكفار كما أن فيه دلالة على أنهم متميزون بهذه الصفات أكمل تمييز ، وأثر

النظم اسم الإشارة للبعيد للدلالة على مدى بعدهم فى الضلالة ، وقد عطفت هذه الجمل بالواو للتوسط بين الكمالين لكونها جملا خبرية اتحد فيها المسند اليه وهو المشار اليه باسم الإشارة ، وعقب كل مشار اليه بوصف مقصود لذاته مستقل عن غيره للدلالة على كماله فيه ، وهو أى الكمال فى الوصف مستفاد أيضا من الحصر على سبيل المبالغة ، أى أن هؤلاء هم الجامعون لهذه الصفات الكاملون فيها • فهم كاملون فى كفرهم ووصل بهم وصف الذل والمهانة الى أقصى مداه بتلك الهيئة التى يكونون عليها يوم القيامة حينما يساقون الى العذاب ، وهى شد اليد بالطوق الى العنق والدليل عليه قوله تعالى : « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون » (١) والجملة الثالثة تحمل معنى التهديد بالعذاب المؤبد وهم المستحقون له دون غيرهم من أهل الكبائر ، وهذا غاية العذاب وكماله •

والآية الثالثة هى قوله تعالى : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون » هذه الآية فيها بيان وايضاح للآية السابقة ولذلك فصلت عنها لكمال الاتصال بين الجملتين لكون الجملة الثانية منزلة الأولى منزلة بدل الاشتمال ، فان انتفاء ايمانهم يشتمل على ما تضمنته هذه الآية من جعل أغلال فى أعناقهم حقيقة أو تمثيلا (٢) •

والمعنى على التمثيل جعلنا حالهم كحال من فى أعناقهم

(١) سورة غافر : ٧١ ، ٧٢ •

(٢) التحرير والتنوير ٣٤٩/٢٢ •

أغلال فهي الى الأذقان فهم مقمحون وهو مثل لتصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل الى ارعوائهم بأن جعلهم كالمفلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون الى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطئون رؤوسهم له وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم فى أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر فى آيات الله ، وجعل الأغلال فى أعناقهم يلزم منه شد أيديهم بها الى أعناقهم بحيث تكون موضوعة تحت أذقانهم ، ومن ثم فان رؤوسهم مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظروا بها الى شئ مما حولهم فلا يلتفتون يميننا ولا شمالا ، والمقمح : الذى يرفع رأسه ويغض بصره ، وجملة « فهي الى الأذقان » تدل على أن الأغلال ملزوزة الى عظام الأذقان بحيث اذا أراد المفلول منهم الالتفات أو أن يطأطئ رأسه وجعه ذقنه فلازم السكون ، ولذلك فان قوله تعالى : « فهم مقمحون » نتيجة قوله : « فهي الى الأذقان » أى أن هذه الجملة سبب فى الاقماح ، ويجوز أن يكون قوله : « انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا » الخ وعيد بما سيحل بهم يوم القيامة حين يساقون الى جهنم فى الأغلال كما أشار اليه قوله تعالى : « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون » وعلى هذا يكون فعل « جعلنا » مستقبلا وعبر عنه بصيغة الماضى لتحقيق وقوعه كقوله تعالى : « أتى أمر الله » وتكون الأغلال التى وصلت الى الأذقان مما أدى الى الاقماح حقيقة .

والتعبير القرآنى يواجه رذيلتين فى المجتمع البشرى فيصورهما فى صورة حركية غاية فى السخرية الأولى رذيلة الاسراف والثانية ضدها وهى رذيلة البخل ، وان كان القرآن

يركز على الرذيلة الثانية لكثرة شيوعها في المجتمع الحرص،
الانسان على حب المال وشحه بانفاقه في وجوه الخير ، وحب
للمسك ، وعدم التفاته الى أجله المحدود في هذه الحياة كل هذا
يدعوه الى شدة الحرص عليه والى تحصييله من أى طريق حل
أو حرم . قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا
تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » فالبخيل المسك
يصوره القرآن بأنه ليس مجرد مستمسك بما عنده ، ولا مجرد
مانع يره عن الناس ، وانما هو شخص مغلول اليدين ، وليس
وضيع الغل أو وضع اليدين في الغل عاديا كما يألف الناس
في الأغلال ، وانما نراهما مغلولتين الى عنقه ، وتصورنا
لشخص غلت يداه الى عنقه ، لا شك أنه يدعو الى الطرقة
والعجب ، ويجعل المتصف بهذه الصورة أضحوكة وموضعا
للمبذر ، ويصور القرآن الرذيلة الثانية وهى التبذير بصورة
انسان يبسط يده غاية البسط ونهايته ، وهو المفاد بقوله :
« كل البسط » أى البسط كله الذى لا بسط بعده ، وهو معنى
النهاية ، ويسط اليد يعنى أنها فارغة لا تملك شيئا، ولا تمسك
على شيء ، وهكذا يكون مصير المسرف حين يجد نفسه بعد حين
لا شيء فى يده ، ثم يصور القرآن نهاية ونتيجة كل من البخيل
المسك ، والمبذر المسرف بين الناس فالبخيل « قاعد » وكأنه
ملازم للأرض كشخص مقعد حركته قليلة وبطيئة لا يمتد أثره
الى شيء يذكر ويحمد عليه من الله والناس ، فالبخيل بعيد من
الله بعيد عن الناس ، كما ورد فى الحديث الشريف ، والبخيل
يتلقى اللوم الذى ينهال عليه من كل جانب وقد قيل :

● ان البخيل ملوم حيثما كانا ●

والمبذر أيضا قعيد الأرض بعد أن نفذ ماله ، لا حركة له ، ولنا أن نتخيله أو نتمثله جالسا مطرقا الى الأرض ، شارد الذهن يفيض أسى وحسرة وألما بعد أن أصبح صفر اليدين فلم يجد من ماله شيئا فكل منهما أصبحت حركته مقيدة بالانزواء الى الأرض فقله : « فتقعد ملوما محسورا » جواب لكلا النهيين على التوزيع بطريقة اللف والنشر المرتب فلف بينهما فى قوله « تقعد » ثم نشر فرجع الملموم الى النهى عن الشح فهذه صفته وحاله بين الناس والمحسور يرجع الى النهى عن التبذير فهذه نهايته وصفته الملازمة له . ومن هنا فان المحمود فى العطاء هو الوسط الواقع بين طرفى الافراط والتفريط فالفضيلة وسط بين رذيلتين كما قال الحكماء .

واذا كان المولى عز وجل قد وصف البخيل بهذا الوصف وهو عام فى كل بخيل فانه تعالى وصف المنافق بهذه الصفة فالبخل من الصفات الأساسية للمنافقين ، ولكنه سبحانه صورها هنا بصورة أخرى وهى صورة قبض الأيدي المقابلة لبسطها ، ولا نقول المقابلة لبسطها كل البسط ، لأن بسط اليد بمعنى انفاقها فى اعتدال هو الحد المطلوب فى الانفاق أما أن يترك يده مبسوطة كل البسط الى النهاية فهذا هو المذموم ، فالقرآن يستخر من يغل المنافقين وهو لا يعبر عن بخلهم بالألفاظ وانما يصورهم فى هذه الصورة الحركية وأيديهم مقبوضة ، لا تنبسط بأى خير ولا تمتد بأى بر قال تعالى : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون » (١) .

وإذا كان البسط لليد كل البسط قد استعمل في هذه السياق للتبذير فإن بسطها في آية أخرى قد استعمل بمعنى امتدادها بالعدوان والقتل كما في قوله تعالى : « لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك » (١) وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » (٢) فالمراد من بسط اليد في الآية الأولى : حركتها العدوانية الباطشة من أجل القتل ، وقد نفى هابيل عن نفسه هذه الحركة على أبلغ وجه وأكد ذلك بتقديم ضميره « أنا » بعد النفي « ما أنا » ودخول الباء - بباسط - لزيادة التأكيد في نفي البسط عن نفسه - ولذلك يقول الرمخشري : فان قلت : لم جاء الشرط بلفظ الفعل ، والجزاء بلفظ اسم الفاعل ، وهو قوله : « لئن بسطت » ما أنا بباسط ؟ قلت ليفيد أنه لا يفعل هذا الوصف الشنيع ، ولذلك أكد بالباء المفيدة لتأكيد النفي » (٣) .

وأما الآية الثانية فهي تنادى جماعة المؤمنين بأن يشكروا نعمة الله بالنجاة من شر هؤلاء الأعداء من اليهم د فقد حسوا أن يبسطوا أيديهم إلى المؤمنين ، وذلك كناية عن القتل والإهلاك فسارع المولى عز وجل بإفساد مكرهم وكيدهم للمؤمنين بأن كف أيديهم عنهم ، فالفاء العاطفة تفيد التسارعة إلى هذا الكف تنميما للنعمة . وقد جاءت الأيدي هنا مظهرة في موقع

(١) المائدة الآية : ٢٨ .

(٢) المائدة : ١١ .

(٣) الكشف ٦٠٧/١ .

الاضمار لزيادة التقرير ، ولافادة أن هذه الأيدي التى بسطت بالعدوان على المؤمنين هى التى كفها الله عن مباشرة الفعل والحاق الأذى والقتل بالمؤمنين •

وورد بسط الأيدي والألسنة بالسوء فى قوله تعالى : « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » (١) فالبسط هنا - كما يقول صاحب التحرير والتنوير - مستعار للاكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل ، وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك ، فبسط اليد : الاكثار من عملها ، والمراد به هنا : عمل اليد الذى يضر مثل : الضرب والتقييد والطمع ، وعمل اللسان الذى يؤذى مثل الشتم والسخرية والتهكم ، ودل على ذلك قوله : بالسوء ٠٠٠ (٢) • وقيل : ان بسط اليد فى هذه الآية: كناية عن القتل والأسر ، وبسط الألسنة كناية عن الشتم والايذاء القولى يقال : بسط اليه يده اذا بطش به ، وبسط اليه لسانه اذا شتمه وهذا الوجه أولى بالقبول لأن الكثرة التى جعلها الشيخ ابن عاشور بمعنى البسط أى أن البسط مستعار للكثرة هى مفهومة من صيغة الفعل « يبسطوا » اذ فيه دلالة على تجدد الحدث واستمراره •

حركة اليد بالضم والنزع والسلك والادخال :

ورد الأمر الالهى لموسى عليه السلام فى بيان معجزة اليد مرة بالضم وأخرى بالسلك وثالثة بالادخال فى قوله تعالى :

(١) سورة الممتحنة الآية : ٢ •

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/١٤٠ •

« واضمم يدك الى جناحك » (١) « وأدخل يدك فى جيبك » (٢) و « اسلك يدك فى جيبك » (٣) والأمر بالضمم قد جاء فى موضعين وهما قوله تعالى : « واضمم يدك الى جناحك » وقوله تعالى : « واضمم اليك جناحك » .

والزمخشري يبين المضموم والمضموم اليه فى الموضعين ، ويوفق بينهما فيقول : فان قلت : قد جعل الجناح وهو اليد فى احد الموضعين مضموما وفى الآخر مضموما اليه ، وذلك قوله : « واضمم اليك جناحك » وقوله : « واضمم يدك الى جناحك » فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالجناح المضموم اليه هو اليد اليسرى ، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراها جناح (٤) .

« تقلب الكفين » :

فى قوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها » (٥) معنى تقلب الكفين أن يبدى بطن كل منهما ثم يعوج يده حتى يبدو ظهر كل منهما يفعل ذلك مرارا دل عليه الفعل « يقلب » حيث جاء مضارعا لافادة تجدد الحدث واستمراره ، وهو كناية عن الندم والتحسر ، وليس ذلك من قولهم :

وضربنا الحديث ظهرنا لبطن وأتينا من أمرنا ما اشدتهينا

(١) سورة طه آية : ٢٢ .

(٢) سورة النمل : ١٣ .

(٣) سورة القصص آية : ٣٢ .

(٤) الكشف

(٥) سورة الكهف آية ٤٢ .

فإن ذلك مجاز عن الانتقال عن بعض الأحاديث الى بعض ،
ولكونه كناية عن الندم . عدى بعلى فى قوله : « على ما أنفق
فيها » فالجار والمجرور ظرف لغو متعلق بيقلب ، كأنه قيل :
فأصبح يندم على ما أنفق أو عدى بعلى لأنه ضمن معنى : يندم .
أى ضمن يقلب معنى يندم لأن النادم يفعل ذلك . والضمير فى
قوله : « فيها » يعود الى عمارة جنتيه للدلالة على أن الندم إنما
يكون على الأفعال الاختيارية التى لم تبلغ الغاية المرجوة منها ،
وبهذا يعلم وجه تخصيص الندم على ما أنفق بالذكر دون هلاك
الجنة ، وقد يقال : ان المراد من الكفين : الملك لأنه يعبر عنه
باليد من قولهم فى يده مال أى فى ملكه مال أى فأصبح يقلب
ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق (٢) . وهذا المعنى فيه بعد
فاطلاق اليمين وإرادة الملك فيه خفاء وإبهام لعدم وضوح
القرينة مما يتنافى مع مراد الله من كلامه الذى لا خفاء فيه ،
ودل قوله : « فأصبح » على أن هذا الإهلاك جرى بالليل ، كقوله
تعالى : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت
كالصريم » (٢) وهذا الجاحد المشرك لم تستيقظ فطرتة الا نرى
هذا الوقت العصيب الذى يرى فيه ثمر جنته مدمرا من كل جانب
لم يسلم منه شئ بدلالة قوله تعالى : « وأحيط بشمره » أى أن
الدمار أخذها من جميع جوانبها وأقطارها . هنا تندم حين
لا ينفع الندم .

(١) انظر تفسير القرطبي ٤٠٢٧/٦ .

(٢) سورة القلم آية : ٢٠ .

حركة شد العضد :

أصل العضد : ما بين المرفق الى الكتف • وقد استعملت في القرآن في موضعين الموضع الأول في سورة القصص قال تعالى : « قال سنشد عضدك بأخيك » •

والموضع الثاني في سورة الكهف في قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » •

استعملها في الموضعين مجاز بمعنى المعين والناصر كأنه أعانه بعضده كما استعمل الظهير أيضا كناية عن التقوية والمؤازرة كأنه أسنده بظهره ، والساعد كأنه قواه بساعده وأوثر العضد بمعنى المؤازرة والتقوية لأن قوة اليد بالعضد قال طرفة :

بنى لبيني لستهم بيد إلا يدا ليست لها عضد

ويقال في دعاء الخير شد الله عضدك ، وفي ضده : فت في عضدك (١) • وجعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يشد به ، والمراد أنه يؤيده بفصاحته • وقيل : ان شد عضده كناية تلويحية عن تقويته ، لأن اليد تشتد بشدة العضد ، والجملة تشتد بشدة اليد • وقد يكون شد عضده بأخيه من قبيل التمثيل أي هر استعارة تمثيلية شبه حال ايضاح حجته بحال تقوية من يريد عملا عظيما أن يشد على يده أو يكون المراد شبه حال موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد •

(١) الاعجاز البياني للقرآن للدكتورة بنت الشاطئ ص ٤١٧ •

حركة الوجه

الوجه له تقلبات واتجاهات وإشارات تعبر عما في ضمير صاحبه وتكشف عن حالته النفسية ، وهو أشرف عضو في الإنسان ، وبه يتوجه المرء نحو خالقه داعياً متضرعاً ، ولذلك جاء استعمال القرآن للوجه للدلالة على الذات في كثير من المواضع منها قوله تعالى : « أنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً » (الأنعام آية ٧٩) وقوله تعالى : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم » (سورة يوسف آية ٩) قال تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (سورة الرحمن آية ٢٧) قال تعالى « فأقم وجهك للمدين حنيفاً » (سورة الروم آية ٣٠) وقوله تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (سورة البقرة آية ١١٢) واستعمل هذا اللفظ للدلالة على الفرح والسرور وذلك بما يتبعه من وصف يدل على هذا المعنى ، وللدلالة على الغضب والعبوس والذلة والانكسار ، والآيات في ذلك كثيرة منها قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » (سورة عبس آية ٣٨) وقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » (سورة القيامة آية ٢٢) وقوله تعالى : « وجوه يومئذ غبرة ترهقها فترة » (سورة عبس آية : ٤٠) وقوله تعالى : « وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » (سورة القيامة آية ٢٤) وخص الوجه بالحاق العذاب به لما في ذلك من الذلة والمهانة لا سيما يوم القيامة قال تعالى : « سراويلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » (سورة إبراهيم آية ٥٠) وقال تعالى : « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » (سورة المؤمنون آية ١٠٤) وقال تعالى : « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار »

« (سورة النمل آية ٩٠) وقال تعالى : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » (سورة القمر آية ٤٨) .
ولنبداً بتحليل حركة الوجه فى بعض الآيات وما تشير اليه الحركة من أسرار بلاغية منها قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولى وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » (سورة البقرة آية ١٤٤) فقد بان أن حركة وجهه صلى الله عليه وسلم وتقلبه نحو السماء عن رغبته صلى الله عليه وسلم وشدة تعلقه بالاتجاه شطر المسجد الحرام ، فالمراد من تقلب الوجه فى السماء حركته المعبرة عن رغبته الشديدة صلى الله عليه وسلم فى تحويل القبلة الى المسجد الحرام ومن ثم فهو دائم التطلع الى السماء سائلاً الله عز وجل أن يحقق له ما يحبه ويرتضيه فهذا التعبير كناية عن ملازمة الدعاء . ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور صاحب التحرير والتنوير : أن المراد بتقليب الوجه الالتفات به أى تحويله عن جهته الأصلية الى جهة أخرى أى أن هذا التعبير كناية عن تحويل وجهه الى القبلة التى يرضاها ، ولذلك يقول : قوله « فلنولينك قبلة ترضاها » تأكيد للوعد بالصراحة بعد التمهيد لها بالكناية ، وأكدته أيضاً باللام والنون والفاء « (١) ونقول : ليس فى الآية تكرار وإنما هما معنيان قد ترتب أحدهما على الآخر فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يتمنى من قلبه تحويل القبلة الى المسجد الحرام ، وكان دائم التطلع الى السماء مقلباً وجهه داعياً الله

« (١) التحرير والتنوير ٢/ ٢٦٠ »

عز وجل أن يحقق له رغبته وقد استجاب الله له عقب ذلك التوجه مؤكدا له تحقيق أمنيته فقال فلنولينك قبلة ترضاها، «فالتعبير بترضاها للدلالة على أن ميله وحبه للكعبة لتقصد الخير بناء على أن الكعبة أجدر بيوت الله بالتوجه إليها في الصلاة ولما كان الرضى مشعرا بالمحبة الناشئة عن تمسك اختيار في هذا المقام دون تحبها أو تهواها أو نزوها» (١) .

وفى قوله تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » مجاز مرسل من اطلاق الجزء وهو الوجه وأرادة الكل أى أن علاقته الجزئية .

وفى قوله تعالى : « وآن اقم وجهك للدين حنيفا » اقامة الوجه هنا استعارة لافراد الوجه بالتوجه الى الدين بحيث لا يلتفت الى شئ غيره أى يظل قائما على تعاليم الدين لا يغيب بصره وذهنه عنه لحظة من اللحظات فيكون المعنى محض وجهك للدين لا تجعل لغير الدين شريكا فى توجهك وهذه الاستعارة التمثيلية كناية عن الاخلاص فى العبادة وتوجه النفس بأسرها لها . ومنه أو قريب منه قوله تعالى : « أسلمت وجهى لله » .

وفى قوله تعالى : « يغل لكم وجه أيبكم » كناية اما عن خلوص محبته لهم ، لأنه يدل على اقباله عليهم ، لأن من يقبل على الشئ يقبل بوجهه عليه ، والاقبال عليهم يدل على خلوص محبته لهم ، لأن من لا يحب الا شيئا لا يقبل الا عليه فيكون الاقبال بالوجه لازما للاقبال عليهم ، والاقبال عليهم لازما

مخلوص المحبة لهم ففيه انتقال من اللازم الى الملزوم بمرتبتين فهو كناية تلويحية ، واذا كان الوجه بمعنى الذات على المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية من اطلاق الجزء واردة السكل كان الانتقال من اللازم الى الملزوم بمرتبة واحدة فهو كناية ايمائية .
واما أن يكون هذا التعبير كناية عن التوفر على نظم أحوالهم وتدبير أمورهم ، وذلك أن خلو الوجه لهم يدل على الفراغ من شغل يوسف والاشتغال بهم ، وذلك يدل على الاهتمام بأحوالهم ونظم مصالحهم ، وعلى هذا القول لا يراد بالوجه الا الذات بخلاف القول الأول فانه يحتمل الوجهين الذات والجارحة المخصوصة (١) .

وفى قوله تعالى : « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » (٢) الحركة هنا مفزعة والجزاء من جنس العمل ، لان هؤلاء الكفار قد تنكبوا الهدى ، وأشاحوا عنه بوجوههم فكان جزاؤهم الانكباب فى النار لأنهم من قبل قد أعرضوا عن الحق ، وكبت بمعنى ألقيت أو طرحت يقال : كبت الاناء أى قلبته على وجهه . وعبر بالوجه وأراد الجسم كله من اطلاق الجزء واردة الكل وهو مجاز مرسل علاقته الجزئية وأثر ذكر الوجوه دون الرؤوس أو الأعناق لأن الوجه هو أشرف ما فى الانسان فاذا طرح فى النار يكون غيره من بقية الأعضاء مطروحة فى النار من باب أولى . ويقول الزمخشري ويجوز أن يكون ذكر الوجوه ايدانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين ، لأن الانتكاس قد يكون من قبل الوجه كما فى هذه الآية وقد يكون

(١) حاشية قطب الدين الرازى على الكشف ورقة ٧٠٥ .

(٢) النمل آية : ٩٠ .

من قبل الرؤوس كما فى قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم
لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » (١) ويؤيد هذا ما جاء فى
اللسان كببت القصعة قلبتها على وجهها وطعنه فكبه لوجهه
(مادة كيب) •

ومنه قوله تعالى : « فككبوا فيها هم والغاؤون » (٢)
الكببة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير
فى المعنى كأنه اذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى
يستقر فى قعرها ويقول سيد قطب واننا لنكاد نسمع من جرس
اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ،
وصوت الكركبة الناشئ من الكببة كما ينهار الجرف فتتبعه
الجروف ، فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه يعنى أن أهل النار
يرمى بهم فى هوة سحيقة فى سجين يترتب على ذلك أن يطرح
بعضهم على بعض مرة بعد مرة حتى يستقروا فى قعر جهنم (٣)
وقوله تعالى « وجنود ابليس أجمعون » من عطف العام على
الخاص لتكون الكببة شاملة للجميع ممن اتبع الشيطان •

انكباب الوجه :

فى قوله تعالى أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى
سويا على صراط مستقيم » (٤) ضرب الله تعالى مثلا للمؤمن

(١) سورة الأنبياء ٦٥ •

(٢) سورة الشعراء آية : ٩٤ •

(٣) فى ظلال القرآن ٢٦٠٥/٥ ط دار الشروق •

(٤) سورة الملك آية : ٢٢ •

والكافر فمثل حال المؤمن المهتدى بنور الله الذى يسير وفق
نواميسه فى الطريق المستوى لا عوج فيه ولا عثرات بحال من
يمشى سويا معتدلا مستقيما فى طريق ممهد يأمن فيه من
العثرات ومثل أيضا حال الكافر الشقى الضال عن طريق الله
المحروم من هداة الذى يصطدم بنواميسه ومخلفاته لأنه
يعترضها فى سيره فيتخذ له مسارا غير مسارها وطريقا غير
طريقها فهو دائما فى تعثر وعناء بحال من يمشى مكبا على وجهه
اما أن يكون هو الذى يمشى على وجهه فعلا لا على رجليه فى
استقامة كما خلقه الله ، واما أن يكون هو الذى يعثر فى طريقه
فينكب على وجهه ثم ينهض ليعثر من جديد وهكذا واما أن يكون
هو الذى يسير منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله
فلا يأمن من العثور والانكباب على وجهه . ويجوز أن يراد
بالمكب على وجهه الأعمى الذى لا يهتدى الى الطريق فيعتسف
فلا يزال ينكب على وجهه ، وأنه ليس كالرجل السوى الصحيح
البصير الماشى فى الطريق السوى المهتدى له . وهذا من قبيل
الاستعارة التمثيلية التى شبهت فيها حالة بحالة وقد حذف
الحالة المشبهة واستعيرت لها الحالة المشبه بها، والتعبير بالانكباب
هنا فيه دقة لأن الكافر أكب على معاصى الله فكان جزاؤه من
جنس عمله بأن يحشره الله يوم القيامة على وجهه كما قال
تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما
مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » وكما سبق فى قوله
تعالى « ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار » .

وفيه دلالة على انقلاب الفطرة عنده فطرة النفس البشرية
التى فطر الله الناس عليها وهى تتفق مع ناموس الوجود
وتتناسق معه ، فانحرف عنها وتباعد . وإيثار كلمة « سويا »

على « مستويا » ليكون اسم فاعل من استوى يقابل قوله :
« مكبا » للدلالة على الاستواء الحسى وهو الاعتدال والمعنوى
وهو سلامة آلات الادراك من أى خلل أو مرض يغقد أو يقلل
من وظيفتها فى سلوك الطريق المستقيم قال تعالى « الذى
خلقك فسواك فعدلك » ، فلو أتى بلفظ مستويا لأوهم أن
المراد اعتدال الخلقة على الصراط المستقيم فقط وانما لفظ
« سويا » يوحى باعتدال الخلقة والخلق واستقامة الفطرة مع
الدين الحق ، والصراط المستقيم هو أقرب طريق موصل للغرض
المقصود فوصفه بالاستقامة يتضمن قربيه ، لأن الخط المستقيم
هو أقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوج طال وبعد
ويتضمن ايصاله الى المقصود ، وتوحيد الصراط دلالة على
عقيدة سالكية فى عبادتهم الها واحدا واتجاههم فى العبادة الى
قبلة واحدة واتباع شريعة واحدة مستقيمة قال تعالى « وأن
هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله » . وفى الآية مقابلة بين الكافر والمؤمن . الكافر
الذى يتوجه بعبادته الى آلهة كثيرة منها اللات والعزى ومناة
وغيرها . والمؤمن الذى يتوجه بعبادته الى اله واحد ، ومقابلة
بين المنقلب على وجهه الذى تعطلت فيه منافذ الادراك ، وبين
المؤمن المعتدل فى خلقته وخلقه لسلامة منافذ الادراك فيه
ومقابلة بين الطرق المتوية التى يسلكها الضال فلا يصل الى
مقصوده وبين الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمتا ،
والدليل على صحة ما ذهبنا اليه فى تفسير الآية قوله تعالى بعد
هذه الآية : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار
والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

وفى ألفاظ الآية وإيثارها فى التعبير على غيرها اشارات وإيحاءات بلاغية تفهم من دلالة اللفظية من حيث مادتها أو صيغتها وفقا لسياقها الذى وردت فيه من ذلك : أن قوله تعالى : « أهدى » أفعل تفضيل مشتق من الهدى وهو معرفة الطريق ، وقد يكون هذا التفضيل على بابيه فيكون قد أثبت للكافرين هداية ، وعلى هذا يكون الكلام من باب مجازاة الخصم واستدراجه بأن يجاريه على زعمه بأن له هداية ما ، وهذا يجعله ينظر فى القضية نظرة انصاف ويجتهد فى ذلك لعله يتسرك التعصب والعناد ويقر بالحقيقة التى لا تخفى على من له مسكة من عقل ، ولكن الجحود أصم آذانهم وأعمى أبصارهم . ويعين على ذلك اتيان الآية مصدرة بالاستفهام المجازى المفيد للتقرير ، وقد يكون اسم تفضل مسلوب المفاضلة لأن الذى يمشى مكبا على وجهه لا شئ عنده من الاهتداء فهو من باب قوله تعالى : « قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه » فى قول كثير من الأئمة (١) ومثل هذا لا يخلو من تهكم أو تمليح بحسب المقام (١) وإيثار الوجه دون باقى أعضاء الجسم لأن الوجه هو أشرف جزء فى الانسان ففيه دلالة على الذلة والمهانة كما أن الوجه به منافذ الادراك من السمع والبصر والعقل ، فاذا انكب على وجهه فانه لا يدرك شيئا أمامه أو خلفه أو عن يمينه وشماله لأن وجهه أصبح ملاصقا للأرض فلا يرى شيئا سوى ترابها الذى تخبط فيه فلا يقدر على المشى أو الاهتداء الى جهة معينة يسلكها أصبح طريقه ملتويا متعرجا كأنه طرق متعددة بدليل مقابلته بالطريق المستقيم فى الجانب الآخر الأهدى . « أمن يمشى سويا على صراط مستقيم » .

(١) التحرير والتنوير ٤٦/٢٩ .

صك الوجه :

جاء فى التنزيل الحكيم : قوله تعالى « فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم » (١) حكاية عن سارة زوج ابراهيم عليه السلام، حين جاءت الملائكة ، وبشروه بغلام عليم وهى فى سن يستبعد فيها الحمل، فحين علمت بذلك صاحت صيحة الدهش والتعجب من وقع المفاجأة ، ولم تكتف بذلك بل عبرت عن شدة تعجبها بضرب يدها على وجهها أو على جبهتها على عادة النساء عند التعجب ، والمرء يدهش عندما يرى ما يخالف المألوف له ، ويعجب كيف يكون ، ولكن المشيئة الالهية المطلقة لا تتقيد بمألوف البشر . فقد علمنا التعجب من هذه الصيحة المصحوبة بالتأوه ، أما مقداره وشدته وقوته فقد علمناه من نقل مشهد حركة اليد وهى تضرب الوجه . ومما تجدر الاشارة اليه أن استبعادها هذه البشرى الناتج من شدة التعجب ليس من حيث قدرة الله ، فقدرته تعالى ليس لها حدود ولكن من حيث العادة التى أجراها الله تعالى على سائر النساء فى سننها وتستمر فى التعجب بالأسلوب الخبرى فى قولها : « عجوز عقيم » أى أنا عجوز عقيم لا أنجب فكيف يحدث هذا ، وحذف المسند اليه هنا لضيق المقام . وعلى هذا يكون التعجب قد تنوع بين الصيحة المصحوبة بالتأوه ، وبين الفعل الحركى بصك الوجه ، وبين الأخبار القولى فى قولها « عجوز عقيم » . وقد ورد هذا التعجب فى مقام آخر مضمنا بالاستفهام ومؤكدا بالتصريح به بعده فى قوله تعالى : « قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ان هذا لشيء عجيب » (٢) ويبدو

(٢) سورة هود ٧٢ .

(١) سورة النازيات ٢٩ .

أنها قالت ذلك بعد أن حاضت وتهيأت للحمل ، وأنكرت عليها
الملائكة تعجبها فقالوا « أتعجبين من أمر الله » ، لأنها كانت
فى بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للمعادات ،
فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزهيهها ما يزهى سائر النساء
الناشئات فى غير بيوت النبوة ، وأن تسبح لله وتمجد وكان
التعجب (١) .

حركة الانقلاب على الوجه :

فى قوله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف فان
أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر
الدنيا والآخرة » (الحج ١١) .

ففى قوله : « انقلب على وجهه » كناية عن ارتداده عن
الدين الحق وهو دين الاسلام أى أنه رجع الى وجهه الذى كان
عليه من الكفر ، لأنه كان يعبد الله على حرف أى على طرف من
الدين فهو غير متمكن فى العقيدة ، ولا متثبت فى العبادة يصوره
الله تعالى فى حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند
الدفعة الأولى . ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ،
ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب فهو ينكفىء عن
عقيدته وينتكس عن الهدى الذى كان يسيرا له (٢) ويقول
الزمخشري : وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى ديتهم
لا على سكون وطمأنينة كالذى يكون على طرف من العسكر فاذا
أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه (٣)
وهى من الاستعارة التمثيلية .

(١) الكشف للزمخشري ٢/٢٨١ .

(٢) فى ظلال القرآن .

(٣) الكشف ٧/٣ .

والزمخشري كثيرا ما يطلق التمثيل على الاستعارة
التمثيلية أو التشبيه التمثيل بل ويريد به الاستعارة بالكناية،
والكناية والاستعارة في المفرد ، فالتمثيل مصطلح لم يكن
محددا عنده تحديدا دقيقا (١) .

وقد تدل هيئة الوجه على ما في نفس صاحبه من غيظ
وحنق أو فرح وسرور أو غضب أو رضى ، وغير ذلك من
الوجدانات النفسية .

ففى قوله تعالى : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى
وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم
آياتنا » (الحج ٧٢) .

فالمقام الدال على هيئة الوجه هنا انما هو مقام غضب وغيظ
وحنق على المسلمين الذين يتلون عليهم آيات الله ، وقد دل عليه
هيئة الوجه من عبوسه وتقطيبه ، فالمولى عز وجل قد صور مدى
غضبهم وغيظهم فى صورة شاهدها على وجوههم ، ونعرف
منها ما تدل عليه داخل أنفسهم ، والمنكر اسم مفعول بمعنى
المصدر وهو الانكار ، كالمكرم بمعنى الاكرام ، وفى التعبير
باسم المفعول عن المصدر دلالة على معرفة عين الشئ المنكر ،
وليس مجرد الانكار على وجه الاطلاق اذ أن المصدر يدل على
مجرد الحدث فقط بينما اسم المفعول يدل على حدث وذات ،
ويترقى الانكار الذى يعرف من وجوههم الى مقاربة البطش
بالمسلمين يقال سطا به يسطو اذا بطش به فيكاد يترجم
الى واقع فعلى .

ويصور القرآن يوم الحشر كأنه قد جاء وهم عاينوه بالفعل

(١) البلاغة القرآنية د . محمد أبو موسى : ٤٣٢ .

وهو اليوم الذى كانوا يسألون عنه بقولهم : « متى هذا الوعد؟ » ولما كان الوعد أمرا محققا لا محالة عبر عنه بالماضى فهو بمنزلة الحدث الذى وقع وانتهى زمن حدوثه ، وكثيرا ما يسلط القرآن هذه الطريقة لا سيما فى مجال الوعد والوعيد . ويكشف القرآن عن هيئة وجوه هؤلاء الكفار عندما يعاينون شدة آثام هذا اليوم وأهواله المفزعة وهى هيئة أو حالة تعبر عن الاستياء الشديد أى أن رؤية الوعد ساءت وجوههم بأن علمتها الكتابة ، وغشيها الكسوف والقترة كما يكون وجه من يقاد الى القتل أو يعرض على بعض العذاب .

ويكشف المولى عز وجل عن حال الأبرار من المؤمنين يوم القيامة عندما يقضى بين الخلائق ويدخلوا الجنة وينالوا من نعيمها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فانه من شدة سرورهم وفرحهم بهذا النعيم يظهر ما بداخلهم على وجوههم حتى ان أى راء عندما ينظر فى وجوههم يرى علامات النعيم من نضارة الوجه وبشاشته واشراقه مرتسمة على وجوههم ، والنضرة : البهجة والحسن ، واطافة « نضرة » الى النعيم من اضافة المسبب الى السبب ، أى النضرة والبهجة التى تكون لوجه السرور الراضى اذ تبسّدو على وجهه ملامح السرور قال تعالى : « ان الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » (١) .

ويعرض الله تعالى لحال كل من فريقى المؤمنين والكافرين يوم الحشر ، وما يدخل فى قلوب المؤمنين من الفرح والسرور فيبدو ذلك على وجوههم يعلوها البشر والسرور والاشراق ، وما يدخل

(١) سورة المطففين الآيات : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

فى قلوب الكافرين من الحزن والضيق والخوف فيبدو ذلك على
وجوههم كأنها ناطقة ومعبرة عن دواخلهم فتعلوها الكتابة
ويغشاها السواد ، وتعترهم الدلة والانكسار وذلك فى قوله
تعالى : « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم
قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » والذين
كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ما لهم من
الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما
أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» (١) هما صورتان متقابلتان
لبيان حال أهل الجنة وصفاتهم وأحوال أهل النار وصفاتهم كما
هو منهج القرآن فالذين أحسنوا بدون ذكر المتعلق وهو المفعول
به لافادة عموم الاحسان فى كل شئ يتعلق بأمر دنياهم
وأخراهم أحسنوا الاعتقاد وأحسنوا العمل وأحسنوا كل ما يؤدى
بهم الى الصراط المستقيم . . . الى غير ذلك من وجوه الاحسان
التي لا يحيط بها الحصر ففى الحذف ايجاز مع تكثير المعنى لأن
المتعلق لو ذكر لقيد به ، وكان المعنى مقصورا على ما ذكر ، ونلاحظ
هنا دقة النظم القرآنى فى ابراز التجانس بين العمل والجزاء
فهم أحسنوا العمل فجزاءهم الحسنى وهى الجنة فالجزاء من
جنس العمل ، وليس هذا هو جزاؤهم وحده بل معه الفضل
والزيادة وهى كما قال المفسرون رؤية الله تعالى ، وهى غاية
الرضوان ، ثم أبرز لنا ما بداخل نفوسهم من السعادة والسرور
بنعيم الله ورضوانه بما نشاهده على وجوههم من نضرة النعيم
وبياض الوجوه ، فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم

الذلة » والتعبير يوحي بأن فى الموقف من الزحام واليهول والكره والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه فالنجاة من هذا كله غنيمة وفضل من الله يضاف الى الجزاء المزيـد فيه « (١)

وفى الجانب المقابل نجد أنه عدل عن فعل الاساءة فى جانب الكافرين المقابل للاحسان فى جانب المؤمنين الى فعل الكسب فى قوله تعالى «والذين كسبوا السيئات» للإشارة الى أن اساءاتهم من فعلهم وسعيهم « فما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » ، ومعنى أغشيت وجوههم : أحيطت بها وغطتها سواد فى غاية الشدة حيث شبه ما يبدو على هيئتهم من الذلة والانكسار ، وما يرى على وجوههم من السواد نتيجة للخوف والفرع بظلام الليل وليس مجرد الظلام ، وانما هو الظلام الشديد فى ظلمته وسواده لأنه عبر عنه بقطع من الليل فلم يكتف بقطع من الليل الموصوف بالظلمة المتضمنة فيه بل صرح بالوصف تأكيدا وبيانا لشدة الظلمة ، وهنا تعبر هذه الصورة الحسية وهى احاطة وجه المكروب المرعوب بالسواد الشديد عن ظلام النفس وكدرتها ، فالسواد المعنوى فى نفس الكافر يبرز على وجهه سواد حسى قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » (٢) وقال : « وجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » (٣) كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه .

(١) فى ظلال القرآن ١٧٧٩/٣

(٢) آل عمران ١٠٦

(٣) عبس ٤٠ ، ٤١

الإشارة الرأس وحركتها :

فى النظم القرآنى أوصاف للرأس من حيث حركتها ،
وهيئة هذه الحركة تعبر عن معان بلاغية نوضحها من خلال الآيات :
قال تعالى : « مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم » (١)
تسبقها آية أخرى وهى قوله : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل
الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » وهو مشهد
حركى من مشاهد يوم القيامة يبرزه لنا المولى عز وجل فى
صورة حسية مشاهدة كأننا نراها بعيوننا ، وهى حركات
متوالية تتمثل فى : شخوص الأبصار أى أن أبصارهم أى
أعينهم تظل مفتوحة ولا تغمض من هول ما ترى ، لأنها مبهوتة
مذهولة لا تلتفت الى شىء ، فهذا التعبير كناية عن الدهشة
والذهول .

والحركة الثانية ناتجة عن الأولى ومترتبة عليها وهى حركة
الاهطاع أى الاسراع ، فبعد شخوص أبصارهم من شدة الدهول
من هول ما ترى يسرعون لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون الى
شىء .

والحركة الثالثة هى : اقناع الرأس أى : رفعها ، والمقنع
الذى يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه لا ينظر أحد الى
أحد وقد يستعمل الاقناع فى ضد هذا المعنى يقال : أقنع اذا
طأطأ رأسه ذلة وخضوعاً ، ولا تعارض بين المعنيين اذ هما فى
حالين مختلفين ، فتارة يرفعون رؤوسهم ويشخصون أبصارهم
الى ما يشاهدون من الرعب فلا تطرف أعينهم ، وتارة أخرى

(١) سورة ابراهيم آية : ٤٣ .

يخفضون رؤوسهم ذلة وانكسارا ، وحسرة على ما فات ، وفى
كلتا الحالتين تظل أبصارهم شاخصة لا يرتد اليهم طرفهم ،
وأفئدتهم هواء أى قلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا
يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه ومنه قول حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

فقلوبهم خلت من التماسك والقوة يقال : قلب فلان
هواء اذا كان جباناً لا قوة فى قلبه ولا جرأة •

وفى قوله تعالى : « فسينغضون اليك رؤوسهم ويقولون
متى هو قل عسى أن يكون قريباً » (١) يقال : نغض الشئ
ينغض نغضا ونغضا وأنغض : تحرك واضطرب ، وعلى هذا
يكون المعنى يحركون رؤوسهم استهزاء أو تعجبا وانكارا
ينغضونها علوا أو سفلا •

قيل : اذا أخبر المرء بشئ فحرك رأسه انكارا له فقد
أنغض قال ذو الرمة :

ظعائن لم يسكن أكناف قرية بسيف ولم ينغض بهن القناطر
أى لم تحرك ومنه أيضا قول الشاعر :

أنغض نحوى رأسه وأقنعا كأنه يطلب شيئا أطمعا

ومنه قيل للظليم وهو والد النعامة نغضا ، لأنه اذا مشى
عجل بمشيته وحرك رأسه ، ويقال : نغضت سنه اذا تحركت
وارتفعت من منبتها •

وقال الراجز : « ونغضت من هرم أسنانها » (١) .

وبعد بيان هذه الحركة الدالة على الاستهزاء أو الانكار أتبعها المولى عز وجل بالسؤال الدال على الاستبعاد وهو قولهم : « متى هو » ويحمل معنى الاستهزاء والعناد أيضا لأنهم لم يسألوا للاسترشاد ولم يلتفت الله الى استهزائهم وعنادهم وأجابهم بطريق الجد فأمر رسوله أن يقول لهم : « عسى أن يكون قريبا » فالاستهزاء والعناد صدر منهم بالفعل الحركى والقول اللسانى .

وفى قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » نجد الحركة هنا تعبر عن سلوك الكفار فى انقلابهم من الفكرة الصحيحة المستقيمة التى تفتحت بصيرتهم عليها لحظة من اللحظات عندما أقحمهم ابراهيم عليه السلام فى جوابه على سؤالهم بقولهم : «أأنت فعلت هذا بالهتتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فأسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون » .

فاعتدالهم فى تفكيرهم يتمثل فى اعترافهم بظلمهم على جهة التوكيد فاستشعروا ما فى موقفهم من سخف ، وما فى عبادتهم لهذه التماثيل من ظلم فادح ، ولكنها لم تكن سوى ومضة من نور الحق قذفت فى قلوبهم سرعان ما تلاشت وتبددت وحل محلها ظلام النفس حيث عادوا الى الظلم الذى هم سائرون فيه ، ويصور القرآن هذا العود بأنه انتكاس على الرؤوس أى

(٧) انظر تفسير ابن كثير ٤٥/٣ .

انقلاب عليها بلا عقل ولا تفكير قائلين : « لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » ونرى البون الشاسع بين اعتدالهم فى تفكيرهم ، وانقلابهم عنه بما يشير إليه مدلول حرف العطف « ثم » فى قوله تعالى : « ثم نكسوا على رؤوسهم » فـانقلابهم فى اعتقادهم وتفكيرهم يصوره القرآن فى انقلاب حركى بالانتكاس على الرؤوس فيصير أعلاهم أسفلهم وأسفلهم أعلاهم .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم » (١) وتنكيس الرؤوس هنا فى هذه الآية كناية عن الخزي والذل والمهانة اذ الدليل ينكس رأسه أى يطأطئ رأسه ذلاً وانكساراً انه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة . والاقرار بالحق الذى جحدوه علوا واستكبارا فكان جزاؤهم أن يقفوا أمام ربهم فى ذل وصغار ، وجواب « لو » محذوف للتفخيم والتهويل ولتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، والتقدير : لرأيت أمراً فظيماً لا يدرك كنهه ، ولا يمكن أن يحيط به الوصف أو لرأيت أسوأ حال ترى ، والحذف هنا أبلغ من الذكر ألا ترى أنك لو قلت لفلانك العاصي « والله لئن قتمت إليك » وسكت عن الجواب لذهب بفكره الى أنواع كثيرة من المكروه من الضرب أو الكسر أو القتل . . . الخ ومن ثم يعظم الخوف عنده ، لأنه لم يدر أى أنواع المكروه تبغى ، ولكن اذا ذكرت الجواب بأن قلت : « والله لئن قتمت لأضربنك » لعلم من تحديد الجواب أنك لم تبغ شيئاً غير الضرب ، ولا يخطر بباله نوح من المكروه سواء فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً فى حصول الخوف من ذكره .

طمس الوجوه وردها على أدبارها :

فى قوله تعالى : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها » (١) الطمس : المحو ، تقول العرب فى وصف المفازة انها طامسة الأعلام ، وطمس الطريق اذا درس ، وقد طمس الله على بصره اذا أزاله وأبطله ، وطمست الريح الأثر اذا محته فالمادة تدور حول المحو والازالة ، وعلى هذا فاذا حمل اللفظ على حقيقته وهو طمس الوجوه يكرن المراد منه محو تخطيط صورها فان الوجه انما يتميز عن سائر الأعضاء بما فيه من الحواس فاذا أزيلت ومحيت كان ذلك طمسا ، وهذا تهديد قاس وعنيف ولم يكتف بمجرد محو معالم الوجه وازالة حواسه ، وانما أعقبه برد الوجوه التى محيت معالمها على أدبارها أى ردها الى ناحية القفا ، فالتهديد الحركى بهذين الأمرين الطمس والرد على الأدبار ويلزم منه تنكيس الرؤوس الى الوراء ، فهى صورة قبيحة منفرة تناسب طبيعتهم وتناسب فعلهم الملتوى الذى أخبر الله عنه فى الآية السابقة من تحريفهم للكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة أو بتغيير كلمات الله فى التوراة وتبديلها بكلمات أخرى لتوافق أهواء أهل الشهوات فى تأييد ما هم عليه من فساد الأعمال ، فأنذرهم الله وهددهم بتغيير خلقتهم وتشويهها كما غيروا فى التوراة وبدلوا ، وكما لووا ألسنتهم بالألفاظ التى تحمل معنيين وهو ما يعرف باسم الكلام الموجه نفاقا منهم فقولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، « واسمع غير مسمع » ذات وجهين يحتمل المدح والتعظيم

(١) سورة النساء الآية : ٤٧ .

ويحتمل الاهانة والشتم أما أنه يحتمل المدح فهو أن يكون المراد أسمع غير مسمع مكروها ، وأما أنه محتمل للشتم والذم فهو بمعنى غير سامع أو بمعنى غير مقبول منك ، وهم يقصدون معنى الشتم والذم فأضمرُوا في كلامهم قصدا خبيثا .

وطمس وجوههم قد تكون على حقيقتها بأن يسلط الله عليهم ما يفسد به محياهم فان قدرة الله صالحة لذلك ، وقد مسخهم الله أى مسخ بعضا من أسلافهم قردة وخنازير وهما أقبح حيوانين فى الشكل والخلق ويحتمل أن يكون الطمس مجازا أى أن المراد ازالة ما به كمال الانسان وقوامه من استقامة المدارك ، ومن ثم أثر الوجه بالذكر لأنها مجامع الحواس والمدركات ، والتهديد لا يقتضى وقوع المهدد به ، وفى الحديث أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يجعل الله وجهه وجه حمار .

حركة الوجوه بتقلبها فى النار :

فى قوله تعالى : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا » (١) التقلب : شدة القلب ، والقلب تغير وضع الشئ عن جهة غير الجهة التى كان عليها ، والمعنى : يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم فى النار بتغير اختيار منهم ، ومعنى تقلبيها تصريفها فى الجهات كما ترى البضعة تدور فى القدر اذا غلت فترامى بها الغليان من جهة الى جهة ، أو قد يكون المراد تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها بتغيير ألوانهم بلفح النار فتسود مرة وتخضر اخرى .

(١) سورة الاحزاب الآية : ٦٦ .

أو قد يكون المراد طرحها فى النار مقلوبين منكوسين أو قد يجعل الله ذلك القلب فى وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشوى لينضج جميعه على سواء ، ولو كان لفح النار مقتصرًا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة •

وتخصيص الوجوه بالذكر من بين سائر الأعضاء، لأن حر النار يتردى الوجوه أشد مما يتردى بقية الجلد ، ولأن الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده فهو مقر الحواس الدقيقة (١) : العيون والأفواه والأذان والأنوف كقوله تعالى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة » (٢) ويجوز أن يكون من باب المجاز المرسل من باب اطلاق الجزء وهو الوجه وارادة الكل وهو الانسان المنافق وأوثر هذا الجزء لما له من مزيد اختصاص بذوق العذاب ومعاناة آلامه أكثر من غيره فاذا ما أحرق فى النار كان ما وراءه من سائر الأعضاء أولى ، وأتى بصيغة المضارع للدلالة على تجدد الحدث واستمراره « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » (٣) ، وتضعيف العين فى الفعل « تقلب » للدلالة على كثرة الحدث ، وتكراره • وإيثار حرف الجر « فى » دون « على » لافادة معنى الظرفية وهو أن النار تحتوى على وجوههم بداخلها ، وليسوا فوقها أو على

(١) انظر الكشف ٢٧٥/٣ والتحرير والتنوير ١١٦/٢٢ •

(٢) سورة الزمر من الآية : ٢٤ •

(٣) سورة النساء من الآية : ٥٦ •

طرف منها ، فالنار تغشاهم من كل جهة ، فالتعبير على هذا النحو يراد به تصوير الحركة وتجسييمها ، والحرص على أن تصل النار الى كل صفحة من صفحات وجوههم زيادة فى النكال ، وهؤلاء يوم تقلب وجوههم فى النار لا يجدون وليا يرثى لهم ولا نصيرا يخلصهم . والانسان اذا لقي مخوفا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقى بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه ، والذى يلقي فى النار يلقي مغلوثة يدها الى عنقه فلا يتهيباً له أن يتقى النار الا بوجهه الذى كان يتقى المخسوف بغيره ، وقاية له ومحاماة عليه أو أراد بالوجه الكل من باب المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية .

حركة الأخذ برأس أخيه وجره اليه :

هذه الحركة فيها دلالة على شدة الغضب حيث تعاون القول مع الفعل الحركى للدلالة عليه فى قوله تعالى : « ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره اليه » (١) ان موسى عليه السلام - كان بين يدى ربه فى مناجاة وكلام ، وكان قد استخلف أخاه هارون على القوم من بنى اسرائيل قال تعالى : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » انه عليه السلام نصح أخاه هارون بأن يكون خليفته فى قومه ، وأن يصلح ما يجب اصلاحه من

(١) سورة الأعراف آية ١٥٠ .

أمور بنى اسرائيل ، وألا يتبع سبيل المفسدين ، وقد حاول هارون أن يصلح قومه ، ولكنهم تردوا فى مهاوى الضلالة وانتكسوا باتخاذهم عجلا جسدا له خوار لا حياة فيه يعبدونه من دون الله ، وهذا العجل صنعه لهم السامرى من الذهب الذى قذفه بنو اسرائيل فى النار ، وكانوا قد جمعوه أكدا سدا من حلى المصريات ، كان عارية عند نساء بنى اسرائيل ، فحملنها معهن ، قال تعالى : « ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقدفناها » ، لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم الهما يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم قصدهم نبيهم عن ذلك الخاطى وردداهم ردا شديدا ، فلما خلوا الى أنفسهم ، ورأوا عجلا جسدا من الذهب لا حياة فيه وله خوار من أثر فعل الريح لما رأوا ذلك العجل الجسد طاروا اليه وتهافتوا عليه حين قال لهم السامرى : « هذا الهكم واله موسى فنسى » أى نسى موسى عليه السلام أن يطلبه هنا وذهب يطلبه عند الطور • وقد أعلم الله نبيه موسى بأن قومه قد فتنوا من بعده وأضلهم السامرى قال تعالى « قال نانا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » (١) ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا والأسف من صيغ المبالغة تدل على شدة الغضب ، وقيل هو الحزين ، وقد عبر عن هذا الغضب الشديد بالقول والفعل يبدو فى قوله لقومه : بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم » ومعلوم أن الخلافة انما تكون من بعده ، وانما ذكرت « من بعدى » عقب خلفتمونى للتذكير باليون الشاسع بين حال الخلف وحال المخلف عنه أى من بعد ما رأيتم منى من توحيد الله ونفى الشركاء عنه وإخلاص العبادة له

وتصوير لفضاعة ما خلفوه به أى بعد ما سمعتم منى التحذير من الاشراك ، وزجركم عن تقليد المشركين حين قلتم : اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، فيكون قيد « من بعدى » لتكشف وتصوير الحالة وتهويلها كقوله تعالى « فخر عليهم السقف من فوقهم » (١) وأما الفعل الحركى الذى يدل دلالة بينة على شدة الغضب والحزن الذى ألم به عليه السلام هو ما فعله من إلقاء الألواح وطرحها من يده لما لحقه من فرط الدهش وشدة الغضب والضجر عند استماعه حديث العجل غضبا لله وحمية لدينه ، وكان فى نفسه حديدا شديدا الغضب فالقاء الألواح من يده بمعنى رميها الى الأرض اظهار لمدى الغضب الذى استولى على نفسه كما يفعل المرء حين يثور دمه من شدة الغضب فانه يلقي ما بيده ، وكان الله قد أخبره بفتنة قومه وضلالهم على وجه الاجمال ولكنه عندما رجع الى قومه وعلم بتفصيل ضلالهم بل شاهده عيانا كان ذلك هو الذى أغضبه غضبا شديدا فليس الخبر كالمعاينة .

وبعد القاء الألواح أخذ بشعر رأس أخيه يجره اليه من ذؤابته ولحيته ، وذلك أيضا ترجمة لشدة هذا الجرم الشنيع الذى صدر من قومه لاسيما فيما يتعلق بأمر العقيدة حيث انتكسوا عن العقيدة الصحيحة من توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، فهذا هو الذى استفزّه وذهب بفطنته وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية ، والثقلة بعيدة وقد ظن موسى عليه السلام أن أخاه هارون قد قصر فى أمر الخلافة ففعل به ما فعل قبل أن يبين هارون له عذره .

(١) سورة النحل من الآية ٢٦ .

وهذا العذر قد بينه هارون فى تـلطف ولين فيستجيش شى
نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ليسكن من غضبه ، ويكشف
له عن طبيعة موقفه وأنه لم يقصر فى نصيح القوم ومحاورلة
هدايتهم فيقول فى أسلوب هادىء لين رقيق : « قال ابن أم أن
القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشيت بى الأعداء
ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » « ابن أم » بهذا النداء الرقيق
وبهذه الوشيجة الرحيمة، وبهذا الأسلوب اللين استطاع هارون
أن يستل الغضب من نفس أخيه موسى - عليه السلام - « وانما
أضافه الى الأم اشارة الى أنهما من بطن واحد ، وذلك أدعى الى
العطف والركة وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد
بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره
بحقها (٢) » .

حركة لوى الرؤوس :

فى قوله تعالى : « واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله
لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون » (٢) نزلت هذه
الآية فى شأن المنافقين عندما كشف الله عن ضمائرهم
وما تنطوى عليه نفوسهم من الكذب والحقد على رسول الله
صلى الله عليه وسلم والمسلمين فافتضح أمرهم بالنفاق مشى
اليهم قوم من عشيرتهم وطلبوا منهم أن يتوبوا الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم من النفاق ويطلبوا منه أن يستغفر لهم فكان
ردهم على ذلك بالصـد والاعراض والاستكبار ، ولم يكتفوا
بذلك تصريحاً بل أكدوه بحركة لوى الرؤوس المكنى بها عن

(١) الكشاف ٢/ ١١٩ .

(٢) سورة المنافقون آية ٥ .

الاعراض والاستكبار مع الاستهزاء بما قيل وعدم المبالاة به.
فحكاية هذه الحركة المشفوعة بالقول دلالة على الاعراض
والاستكبار نفهم منها مدى ابائهم واعراضهم عن الاسلام
والانصياع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كان
الصدود منهم متجدد وحادث عبر عنه بالمضارع الدال على هذا
المعنى ، ولما كان الاستكبار أمر مركوز في نفوسهم فهم دائماً
فيهم لا ينقطع عبر عنه باسم الفاعل الدال على الثبوت
والاستمرار .

حركة ثنى الصدور واستغشاء الثياب :

فى قوله تعالى : « ألا انهم يثنون صدورهم ليستغفوا منه
الا حين يستغفون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون » (١) المراد
بثنى الصدور فى اللغة : انحناءها وانعطافها على ما بداخلها ،
قال الفراء نزلت فى بعض من كان يلقي النبى صلى الله عليه وسلم
بما يحب وينطوى له على العداوة والبغض ، وعلى هذا المعنى
يكون المراد من انشاء الصدور اخفاء ما فيها بطريق الكناية
لأنه يلزم من انثنائها بمعنى انعطافها وانحنائها على ما فيها
اخفاء ما فيها من العداوة والبغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم
« ليستغفوا منه » أى لأنهم يريدون بذلك اخفاء هذه العداوة
والبغض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد من استغشاء
الثياب : تنطيتها لهم فى الليل عند النوم عند ذلك يسرون
العداوة والبغض فلا يراهم أحد ولا يسمعونهم بدليل ما ورد من
أن طائفة من المنافقين قالوا اذا أغلقنا أبوابنا وأرخبنا ستورنا
واستغشنا ثيابنا ، وثنيينا صدورنا على عداوة محمد صلى الله

عليه وسلم فكيف يعلم بنا فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : « أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » •

ويقول الزمخشري : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » : يزورون عن الحق وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء : استقبله بصدوره ، ومن أزور عنه وانحرف ثني عنه صدره وطوى عنه كشحه (١) وعلى هذا التفسير يكون ثني الصدور كناية عن الميل عن الحق والانحراف عنه ، يريدون بذلك الاستخفاء من الله تعالى فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازوارهم أى ميلهم عن الحق فى خفية وقد يكون ثني الصدور واستغشاء الثياب على الحقيقة فقد روى أن بعقر المنافقين كان اذا مر بالنبي صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره أى انحنى بظهره وانثنى بصدوره وطأطأ رأسه وغطى وجهه لكيلا يراه النبي صلى الله عليه وسلم فيدعوه الى الايمان ، وقيل : ان قوما من المسلمين كانوا يتنسكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء فبين الله تعالى أن التنسك ما اشدتملت عليه قلوبهم من معتقد وأظهروه من قول وعمل • وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يساره فى الطعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى (٢) •

ونلاحظ فى هذه الآية تكرار أداة التنبيه والتوكيد بان لاقتضاء المقام اياه اذ هو فى مقام كشف ما بداخل نفوس المنافقين من نيات خبيثة ، وعداوة يسرونها يتوهمون أنها تخفى على الله تعالى ، فأكد الله تعالى فعلهم هذا ردا على زعمهم الباطل من خفاء ذلك على الله تعالى ، وفى هذا التكرار أيضا

(١) الكشاف ٢/٢٥٨ •

(٢) تفسير القرطبي ٥/٣٣٣٤ •

دلالة على الترقى من حالة الى حالة أخرى أعظم منها استجهاً لا لهم وبيان معنى الترقى فى الآيه هو أن الله تعالى أراد أن يبين موقفين من مواقف العناد والاستكبار من المشركين حين يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاسلام .

الأول : أنهم اذا رأوا رسول الله يعرضون عنه وينحرفون بباطلهم معتقدين بذلك أنهم يتمكنون من اخفاء أمرهم عن الله تعالى فيشتغلون بذمه عليه السلام .

والثانى : وهو أكثر جهالة وأشد استكباراً لأن فيه مواجهة صريحة من العناد والاستكبار ، وهو أنهم يستغشون ثيابهم لئلا يروا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ولئلا يسمعوا كلامه عندما يروونه مقبلاً عليهم ، لأن من عادته - صلى الله عليه وسلم - اذا رأى الكفار دعاهم الى الاسلام وأسمعهم كلام الله تعالى .

حركة ثنى العطف :

فى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله » (١) عطف الرجل : منكبه وعطفه : جانباه من لسان رأسه الى وركه والجمع أعطاف ، وثانى عطفه حال من الفاعل وهو الضمير المستتر فى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله .. الآية » وقيل : معنى ثنى العطف : لوى العنق ، وعلى هذا يكون الكافر فى وقت المجادلة لاوياً عنقه تكبراً واعراضاً ، فحركة ثنى العطف : كناية عن الاعراض والتكبر أى هو معرض عن الحق فى جداله ، ومول عن النظر فى كلامه ، « فالتعبير يرسم صورة لهذا الصنف من الناس صورة فيها الكبر المتعجرف ثنى عطفه

مأثلا مزورا بجانبه فهو لا يستند الى حق فيعرض عن هذا
بالعجرفة والكبر ليضل عن سبيل الله فلا يكتفى بضلال نفسه
بل يضل غيره بحمله على الضلال» (١) .

« حركة الجنب » :

قال تعالى : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى
بجانبه » (٢) أى اذا أنعم الله على الانسان بالصدقة والسعة أعرض
عن ذكر الله كأنه مستغن عنه مستبد بنفسه لأن النعمة تطفى
وتبطل ما لم يذكر الانسان واهبها فيحمد ويشكر ، « ونأى
بجانبه » تأكيد للاعراض ، لأن الاعراض عن الشيء أن يولييه
عرض وجهه والنأى بالجانب أن يلوى عنه عطفه ويولييه
ظهره (٢) وفيه ترق فى الاعراض اذ أن النأى بالجانب يحمل
معنى التبعاد والاستكبار وهنا فى آية الاسراء يأتى المقابل
« واذا منه الشر كان يؤوسا » ففى مجال النعمة اسند الله
الفعل الى نفسه وفى جانب الشر لم يسنده تعالى الى نفسه ،
وهذه هى الطريقة المعهودة فى القرآن ، وهى أن أفعال الاحسان
والرحمة والجود تضاف الى الله سبحانه وتعالى فيذكر فاعليها
منسوبة اليه ، ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فاذا جىء
بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل ، وبنى الفعل
معا للمفعول أدبا فى الخطاب واضافته الى الله أشرف قسمي
أفعاله كما فى هذه الآية وفى قوله تعالى : « صراط الذين
أنعمت عليهم غير المنضوب عليهم » فانه سبحانه ذكر النعمة

(١) فى ظلال القرآن ٤/ ٢٤٢١ .

(٢) الاسراء ٨٣ .

(٣) الكشف ٢/ ٤٦٤ .

وأضأفها اليه ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حذف
 الفاعل وبنى الفعل للمفعول فقال : « المفضوب عليهم » ونظيره
 قول ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : « الذى خلقنى
 فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقئ ، واذا مرضت فهو
 يشفين » (١) فنسب الخلق والهداية والاحسان بالطعام والسقى
 الى الله تعالى ، ولما جاء الى ذكر المرض قال : واذا مرضت
 ولم يقل : أمرضنى ، وقال « فهو يشفين » ، وغير ذلك من
 الآيات (٢) .

وفى سورة فصلت : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض
 ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض (٣) ، والآيتان
 تكشف عن طبيعة الانسان فعندما يصيبه الشر يجزع الى أن
 يصل الى درجة اليأس والقنوط بل شدته فييأس من روح الله
 « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » وقد لا ينتابه
 اليأس فيلجأ الى الله بالدعاء ويلج فى الدعاء والتضرع والابتهال
 ولذلك وصف الدعاء بأنه عريض وهو مجاز فقد استعير العرض
 لكثرة الدعاء ودوامه لأن الغرض من صفة الاجرام ، ويستعار
 له الطول أيضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

وهذا الأسلوب الخبرى يعد نقدا لسلوك الانسان فى
 الحالتين وتعجب من شأنه فهو يلج فى الدعاء عندما يمسده الشر
 لم يتذكر الاقبال على دعاء ربه الا فى هذه الحالة ، وكان حريا
 به ألا يغفل عن ذلك فى حال النعمة فيشكر ربه ويدعو بدوامها ،
 لأن تلك الحالة أولى بالعناية من حالة منس الضر .

(١) الشعراء ٧٨ - ٨٠ .

(٢) انظر : بدائع الفوائد لابن القيم ١٩/٢ .

(٣) سورة فصلت آية ٥١ .

(٤) - الاشارة)

ونلاحظ أن في قوله تعالى « ونأى بجانبه » كناية أما عن الاعراض وأما عن الاستكبار ، فإذا كانت كناية عن الاعراض كان قوله : ونأى بجانبه تأكيداً للاعراض ، لأن الاعراض عن الشيء أن يولى عرضه وجهه ، ومن يولى عن الشيء عطفه ويولى ظهره فقد حاول الاعراض عنه ودخلت الراو بين المؤكد والمؤكد ، لأنه ليس بتأكيد صناعي . إذا كان قوله « ونأى بجانبه » كناية عن الاستكبار لأن ذلك من عادة المستكبرين كان تكميلاً لمعنى الاعراض لاختلاف مفهوميهما ، وعلى هذا يكونون قد جمعوا بين معنى الاعراض والاستكبار (١) .

وفي قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً » (٢) نجد المشهد الحركي المصور لحال القائمين بالليل يتركون فرشهم الدافئة لعبادة الله خوفاً من عذابه وطمعاً في ثوابه أنه مشهد يصور هيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في لحظة واحدة وفي تعبير عجيب يكاد يجسم حركة الأجسام والقلوب ، فلم يلجأ القرآن الى التعبير المباشر قائلاً : انهم يقومون الليل ، وإنما عبر عن هذا القيام بطريقة أخرى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » في رسم صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب الى الرقاد والراحة والتلذذ بالمنام ، ولكن هذه الجنوب لا تستجيب ، وان كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة لأن النفس تميل اليها لاسيما في وقت اشتداد البرد ، ولكن الايمان المتمكن في القلب يغلب هوى

(١) تحفة الأشراف للفاضل اليمني دراسة وتحقيق للدكتور /عبدالله

محمد سليمان هنداوي .

(٢) السجدة : ١٦ .

النفس ويمسك بزمامها فيصرفها عن مشتتها الى الوقوف في الحضرة الالهية والاشتغال بالعبادة والذكر والدعاء لأجل خشية الله تعالى خوفا من عذابه وطمعا في رحمته وخوفا من غضبه وطمعا في رضاه .

وفى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » (١) .

المراد من الذكر هنا الذكر اللساني أو الذكر القلبي وهو التفكير وأراد من قوله : « قياما وقعودا وعلى جنوبهم » عموم الأحوال أى اباحة الذكر فى الأحوال كلها وهى ما تعارف عليه البشر من الشغل المستلزم للقيام أو القعود والراحة المستلزمة للقعود وقصد النوم فالذكر يجب أن يصدر من المؤمن فى أوقاته وحالاته كلها ، وقد يراد من ذلك أحوال المصلين من قادر وعاجز وشديد العجز (١) . وهنا ذكر القيام أولا والقعود ثانيا ، وعلى الجنوب ثالثا وفى أحوال دعاء الانسان ربه عند مس الضر عكس هذا حيث ذكر الجنب أولا وذكر القعود ثانيا والقيام ثالثا فى قوله تعالى : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » (٢) وفى آية آل عمران قال : وعلى جنوبهم وفى آية يونس قال : لجنبه باللام دون على فما السر فى ذلك ؟

والجواب عن سر ترتيب الأحوال فى سورة آل عمران وعكسه فى سورة يونس هو أن ذكر الله فى وقت الشغل

(١) سورة آل عمران : ١٩٢ .

(٢) التحرير والتنوير

وكسب العيش يكون أولى وأهم لأن المؤمن فى هذا الوقت يؤدى عمله اليومى فيجب أن يكون الله على ذكر منه حتى يتقن هذا العمل ويختلط بغيره من الناس فيجب أن يحسن معاملتهم بحيث يظل طوال يومه ذاكرا الله تعالى بقلبه ولسانه فى كل عمل يؤديه وفى كل خطوة يخطوها ، وعندما يفرغ من عمله اليومى ويركن الى الراحة يجب أيضا أن يذكر الله تعالى فى حال القعود ، وفى حال الاستعداد للنوم عندما ينام على جنبه بحيث لا يخلو وقت من الأوقات عن ذكر الله تعالى . وفى آية يونس قدم الجنب على القعود والقيام باعتبار حال المضرورين فمنهم من هم أشد حالا وهم أصحاب الفرش ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ومنهم المستطيع القيام وكلهم لا يستغفنون عن الدعاء واستدفاع البلاء فتفصيل أحوال الانسان بحسب حال كل فرد أصابه الضر فهو يدعو الله فى حالاته كلها أن أصابه ضر شديد ألزمه الفراش يدعو لدفع الضر نائما على جنبه وان أصابه ضر أقل من سابقه ألزمه القعود يدعو أيضا لكشف هذا الضر ، وان لم يصبه ضر فى نفسه فكان قادرا على القيام بل أصيب فى ماله يدعو أيضا ، ولا يفتر عن الدعاء فى أحواله كلها حتى يكشف الله عنه الضر بدليل قوله تعالى فى آية أخرى « واذا مسه الشر فذو دعاء عريض » فالمقام هنا يستلزم تعميم أحوال المضرور بالدعاء . وقد يكون التفصيل أى تفصيل أحوال .

الاعراض والنأي بالجانب :

فى قوله تعالى : « واذا آنعمتنا على الانسان أعرض ونأى

يجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض» (١) هذه الآية تصف طفيلان النفس الانسانية فاذا أصابته السراء طفى وتكبر ونسى شكر ربه وشغل بلذاته واذا أصابته الضراء لم يصبر ويتخاذل ويصغر ويتضائل ويتضرع ويلج في الدعاء لكشف الضر عنه . والاعراض : الانصراف عن شئ وهو مستعار هنا للمغفلة عن الشكر أى شكر المنعم ، وقد حذف متعلق « أعرض » لدلالة السياق عليه وليكون فى الحذف ثراء فى المعنى وإيجاز فى اللفظ ، لأنه لو ذكر المتعلق لقيد بما ذكر ، أما تركه بدون ذكر فلتذهب فيه النفس كل مذهب بأن يكون المعنى أعرض عن دعائنا أو أعرض عن شكرنا أو عبادتنا . الخ فالحذف يفهم منه عموم الاعراض . والنأى : البعد وهو هنا مستعار لعدم التفكير فى المنعم عليه فشبه عدم اشتغاله بذلك بالبعد . والجانب للانسان منتهى جسمه من احدى الجهتين اللتين ليستا قبالة وجهه وظهره ، ويسمى الشق والعطف بكسر العين والمعنى أبعد جانبه كناية عن ابعاد نفسه أى ولى معرضا غير ملتفت بوجهه الى الشئ الذى ابتعد هو عنه (٢) . وذكر الزمخشري وجهين فى معنى « النأى بالجانب » .

أحدهما : أن يوضع جانبه موضع نفسه كما فى قوله تعالى : « على ما فرطت فى جنب الله » ومنه قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » ومنه قول الكاتب حضرة فلان ومجلسه ، وكتبت الى جهته والى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قال : نأى بنفسه وذهبت به الخيلاء كل مذهب وعصفت به .

(١) سورة فصلت الآية ٥١ .

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٢٥ .

وثانيهما : أن يراد بجانبه : عطفه ، ويكون نأيه بجانبه عبارة عن انحرافه وازوراره كما قالوا ثنى عطفه ، وتولى بركنه (١) . وعلى الوجه الثانى يكون النأى بالجانب كناية عن التكبر والخيلاء امعانا فى الاعراض عن الله ونسيان شكره ، فالتعبير بالنأى بالجانب للدلالة على عدم الالتفات الى شكر المنعم وبعده عن عبادته وتوجهه اليه بالدعاء . وقد يكون نأى الانسان بجانبه يحمل معنى بعده عن الفقراء والمساكين وغيرهما من مصارف الزكاة فلا يعطى كل ذى حق حقه ، وانما ينشغل بأغراضه الدنيوية ليكتسب وجاهة عند الناس يدل على هذا ما جاء فى تفسير قوله تعالى : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » (٢) .

يقول الزمخشري « فان قلت : لم خصت هذه الأعضاء بالذكر ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم حيث لم ينفقوها فى سبيل الله الا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس وتقديم ، وأن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل ويحيون بالاكرام ويبجلون ويحتشمون ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم . وذكر الزمخشري وجها آخر فى سر اختصاص هذه الأعضاء بالذكر . فيقول : وقيل : لأنهم كانوا اذا أبصروا الفقير عبسوا ، واذا ضمهم واياه مجلس ازوروا عنه وتولوا »

(١) الكشف ٤٥٨/٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٥ .

بأركانهم وولوه ظهورهم» (١) • وهذا هو سر ترتيب هذه الأعضاء فى النظم ليكون الجزء من جنس العمل •

(حركة الغمز والهمز واللمز) :

قال تعالى : « ان الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون » (٢) هذا من جملة القين الذى يقال يوم القيامة للفجسار فهو حكاية كون مضى ، وكذبك معطوفاته من قوله : « واذا مروا » ، « واذا انقلبوا » ، « واذا رأوهم » فدل السياق على أن هذا الكلام حكاية قول ينادى به يوم القيامة من حضرة القدس على رؤوس الأشهاد •

حركة دوران الأعين والسلق باللسان :

فى قوله تعالى : « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إلى أي تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد » (٣) يصور الله عز وجل - لنا صورة واضحة المعالم متحركة الجوارح وهى فى الوقت ذاته صورة مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان من المنافقين ، تصورهم فى حالتين متعاقبتين متقابلتين فى حالة الخوف والفرح فى ساعة الشدة وفى حالة الأمن والرخاء فالحالة الأولى يرسم لنا المولى - عز وجل - صورة نفسية مبدعة لدخائل هؤلاء المنافقين ، ويبرزها لنا فى مشهد حركى حسى يبدو على جوارحهم ، وهى صورة ناطقة لما تضره نفوسهم وهى وان

(١) الكشف ١٨٨/٢ •

(٢) المطففين ٢٩ ، ٣٠ •

(٣) سورة الأحزاب آية : ١٩ •

لم تنطق بكلام الا أن ما توحى به فى النفس أبلغ وأكثر تعبيراً
واوسع دلالة من أى كلام فيصور القرآن ما يعترى المنافقين من
مشاعر الخوف والرعب والشعور بالخطر حين يواجههم موقف
يمتحنون فيه . فالمفروض أنهم يحاولون خديعة المسلمين
فيظهرون لهم أنهم لا يقلون عن أى مسلم اسلاماً وعبادة
وتضحية فى سبيل الاسلام ، وقد يتمكنون من اجادة هذا
المظهر فى كل موقف يشاركون فيه المسلمين ، ولكن موقفاً معيناً
يضعهم أمام عقبة صلبة لا تقوى نفوسهم عندها على استمرار
التمثيل وخديعة المسلمين ، هذا الموقف هو الشعور بالخطر عند
ذلك تجتاحهم مشاعر عارمة من الخوف والرعب والفرع يبرزها
لنا القرآن فى صورة تنطق بها أوصالهم وجوارحهم بالجبن
والخوف ، وقد يكون هناك مجال واسع لوصف مشاعرهم هذه ،
وان ذلك ليجتاج الى كلام كثير ووصف مستفيض ولكن القرآن
يكتفى عن هذا الكلام الكثير والوصف الطويل بصورة يرسمها
لهم وهم يعانون هذه المشاعر ، وتبدو الصورة فى مظهرها
بسيطة ، ولكنها تؤدى ما لا يؤدیه كلام طويل ، وتوحى للمخيل
والنفس بمعان لا يبرزها وصف مهما يطل فالقرآن يصوغ ذلك
كله فى جملة واحدة معبرة هى : « تدور أعينهم » ، وتصورنا
لشخص تدور عيناه بهذه الصورة فى موقف الخوف يغنينا عن
أى كلام ويفتح لنفوسنا مجالا فسيحا للتصور ما يدور فى دخيلة
صاحب هاتين العينين ، فان النفس يمكن أن تتخيل وراء هذه
الصورة معانى أكثر مما تؤدیه الألفاظ وهذا هو الایجاز الذى
يعرف بإيجاز القصر ، ويزيد القرآن هذه الصورة الموجزة بياناً
فيشبههم فى نظرهم الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
والى المؤمنين فى حالة دوران أعينهم وعدم استقرارها على حال

ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا « تدور أعينهم » لذهاب عقولهم فلا يستقيم النظر منهم الى جهة ، وانما أعينهم تدور فى كل الجهات ، وقيل : لشدة خوفهم تدور أعينهم فى كل الاتجاهات حذرا أن يأتيهم القتل من احداها أو من كل جهة ، وانظر الى دقة التعبير القرآنى فى ايثار الفعل المضارع « تدور » دلالة على تجدد الحدث واستمراره ، وأن هذه الحركة متجددة كلما تجدد الخوف والفزع ودقة النظم القرآنى تبدو أيضا فى الصورة التشبيهية ومدى ملاءمة طرفى التشبيه لتلك الحالة النفسية من الجبن والخور ، فان المنافق فى حالة الخوف جبان وضعيف يخشى ازهاق روحه فى أى وقت كما أن المغشى عليه من الموت فى هذه الحالة من الضعف يخشى مفارقة الروح لجسده فلا تستقر عينه على شىء وانما هو دائم النظر الى كل ما حوله .

والدليل على أن المراد من الخوف فى الآية هو الخوف من القتال هو ما صرح به القرآن فى موطن آخر - فان القرآن يفسر بعضه بعضا - فى قوله تعالى : « فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت » (١) فان المنافقين أضعف الناس احتمالا لمواجهة المواقف الصعبة أو الخطرة بحكم أنهم أضعف الناس ثباتا على أى شىء وأشدهم خوفا وجبنا كما مر فهم لا يملكون من القوة أو القدرة على الحركة فى أى عضو من أعضائه غير حركة عينيه ، فقد شلت حركتهم وحلت عزائمهم بحيث لا يبقى من

قدرتهم على الحركة والتعبير الا ما يبقى لدى المحتضر الذى يعانى الموت .

وأما الحالة الثانية فهى على العكس من ذلك حينما يحسدون بالأمن تبدو فى أفواههم صورة حركية يرسمها اللسان فيحاولون جاهدين أن يظهرُوا أنفسهم بمظهر القوة والشجاعة فيمقدار ما حدث لهم فى حالة الخوف والفرع من ضعف وخور شديدين يحدث العكس لهم فى حال الأمن من القوة والشجاعة ميلا الى تعويض نقصهم من الناحية النفسية وذلك فى قوله تعالى : « فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد » . ومادة السلق تدور حول القوة والشدة فى الصوت والمعنى أنهم بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم فى الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها يقولون : أعطنا فانا قد شهدنا معكم ، فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا ووقت اليأس أجبن قوم وأخوفهم . وسأل نافع عن قوله تعالى « سلقوكم بالسنة حداد » فقال ابن عباس : الطعن باللسان . وشاهده قول الأعشى :

فيهم الحضب والسماحة والنجم دة فيهم والخطاب المسلاق

وهذا اللفظ « سلق » وحيد فى القرآن مادة وصيغة أما وصف الألسنة بالحداد فوحيدة الصيغة وأما المادة فقد جاءت فى القرآن حديد - وحدود - كما جاء الفعل « حاد » ماضيا ومضارعا . . والمادة أيضا تعطى معنى القوة والحدة والعنف . وفى الحديث : « ليس منا من سلق أو حلق » قال ابن الأثير : أى رفع صوته عند المصيبة ، وأصل المادة فى الاستعمال الغوى هو السلق بالماء الحار وفى الآية من الاستعمال المجازى ،

أى أن وقع هذه الألفاظ على مسامع المؤمنين كوقع الماء الحار على الجسم ففي السلق دلالة على التجريح والظعن ومما يتصل بحركة العين ارتداد الطرف وهو ما يعرف بغمض العين فى قوله تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك » (١) ان نبى الله سليمان عليه السلام أراد احضار عرش ملكة سبأ « بلقيس » قبل مجيئها مسلمة مع قومها ليكون ذلك وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها الى الايمان بالله والاذعان لدعوته ، وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه ، وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح الى الظهر فاستطول سليمان عليه السلام هذه الفترة واستبطنها كما يفهم من السياق فاذا الذى عنده علم من الكتاب يعرض أن يأتي به فى غمضة عين قبل أن يرتد اليه طرفه ، وارتداد الطرف حقيقته : رجوع تحديق العين من جهة منظورة تحول عنها لحظة ، وعبر عنه بالارتداد ، لأنهم يعبرون عن النظر بارسال الطرف وارسال النظر ، فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك • ويقول الزمخشري : ارتداد الطرف هو تحريك أجفانك اذا نظرت فوضع موضع النظر أى أن الجفن عبر به عن سرعة الأمر ، وقيل أراد به مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، وهو كما تقول : افعل كذا فى لحظة عين أو فى غمضة عين ، وأياما كان المعنى فهو دال على سرعة الاستجابة ، واحضار عرشها على هذا النحو من كرامات الأولياء قيل : هو آصف بن برخيا وهو من بنى اسرائيل ، وكان صديقا يحفظ اسم الله الأعظم الذى اذا سئل به أعطى ، واذا دعى به أجاب •

حركة الفم بالتبسم والضحك :

وردت في قوله تعالى : « فتبسم ضاحكا من قولها » اى من قول النملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون» (١) تبسم سليمان - عليه السلام - من قول النملة تبسم تعجب . ويرى صاحب الكشف ان التبسم قد وصل الى الضحك حيث قال : « ومعنى « تبسم ضاحكا » تبسم شارعا في الضحك وأخذا فيه وعلى هذا تكون كلمة « ضاحكا » حالا مؤسسة ويرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن التبسم أضعف حالات الضحك ، فقوله « ضاحكا » حال مؤكدة لتبسم وضحك الأنبياء التبسم كما ورد في صفة ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما يقرب من التبسم مثل بدو النواجذ كما ورد في بعض صفات ضحكه . وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء ، وفي الحديث « كثرة الضحك تميت القلب » (٢) - وفي قول ابن عاشور « أو ما يقرب من التبسم مثل بدو النواجذ » نظر ، لأنه كيف تبدو النواجذ ويكون قريبا من التبسم ان بدو النواجذ انما تكون في أقصى مراحل التبسم والا ما فائدة الغاية المفهومة من « حتى » في قول الرواة : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تعجبه من أمر « ضحك حتى بدت نواجذه » فإذا كان الضحك يطلق على التبسم فان بدو النواجذ يكون في الغاية منه . وتعجب سليمان عليه السلام من قول النملة لما يدل عليه قولها على لطافة جسمها وصغر حجمها من أمور كثيرة منها : أنها عرفت اسمه ، ودل قولها : وهم لا يشعرون على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى

(١) النمل ١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٣/١٩ .

شهرة حاله وحالهم فى باب التقوى ، وذلك قولها : « وهم لا يشعرون » تعنى أنهم لو شعروا لم يفعلوا ، فهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة ، وهذا تنويه برأفته وعدله الشامل لكل مخلوق بهما كان حجمه . وتعجب أيضا مما دل عليه قولها من شدة فطنتها ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم فالإضافة فى « مساكنكم » للاختصاص ، فقد عرفت هى والنمل أن لكل طائفة منها مسكنا لا يدخل عليهم فيه سواهم (١) . وقد استفتحت النملة خطابها بالدعاء الذى يسمعه من خاطبته ، ثم أتت بالاسم المبهم ثم أتبعته بما يشبه من اسم الجنس إرادة للعموم ، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر ، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش فيحطمهم سليمان وجنوده ثم اعتذرت عن نبى الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك . فجمعت بين الاعتذار عن مصرة الجيش بكونهم لا يشعرون ، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم ويدخلوا مساكنهم وتعجب أيضا نبى الله سليمان وتبسم سرورا وفرحا بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من ادراكه بسمعه ما همس به بعض الحكال الذى هو مثل فى الصغر والقلّة ومن احاطته بمعناه لذلك كله تبسم نبى الله ضاحكا من قولها ، وانه لموضع حقيق بالتعجب والتبسم ، ولذلك عقبه بالدعاء المشتمل على استيزاع الله شكر ما أنعم به عليه من ذلك وعلى استيفائه لزيادة العمل الصالح والتقوى (٢) .

(١) انظر الكشف ١٤٢/٣ .

(٢) انظر : بدائع التفسير لابن القيم ٣٣٥/٣ .

حركة الفم بالنفخ فى النور لابطال أثره :

فى قوله تعالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (١) سياق الآية يشير بوضوح الى أن الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم هم من أهل الكتاب بدليل الآية السابقة عليها وهى قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » فحرب أهل الكتاب وخصوصا اليهود للاسلام كانت حربا موجهة الى الدين نفسه بالتشكيك فيه والسخرية منه ، وانكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك كان رد الله عليهم « والله متم نوره ولو كره الكافرون » . وهم انما يفعلون ذلك حسدا منهم وحقدا على انتشار الاسلام وظهوره قال تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (٢) والاطفاء ابطال الاسراج وازالة النور بنفخ عليه أو هبوب رياح . والكلام على طريقة التمثيل مثل حالهم فى محاولة تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم وصد الناس عن اتباع الاسلام واعانة المناوئين للاسلام بالقول والارجاف، والتحريض على المقاومة ، والانضمام الى صفوف الأعداء فى الحروب ، ومحاولة نصارى الشام الهجوم على المدينة بحال من يحاول اطفاء نور ينفسخ فمه عليه ، فهذا الكلام على طريق الاستعارة التمثيلية التى شبت فيها هيئة بهيئة ثم حذفت الهيئة الدالة على المشبه واستعيرت لها الهيئة الدالة على المشبه به وهو ارادتهم اطفاء نور الله بأفواههم .

(١) سورة التوبة الآية : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٩ .

وفى ذكر الأفواه اشارة الى أن حروبهم الموجهة ضد الاسلام ورسوله انما هى حروب كلامية بالتكذيب والارجاف والتخريف على مقاومة الاسلام وتشويه تعاليمه ، ومحاولة تثبيط المسلمين عن دينهم وتشكيكهم فيه حتى يرتدوا ، فقد روى أن شحاص ابن عازورا وزيد بن قيس ونفرا من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد ألم تروا ما أصابكم ؟ ولو كنتم على حق ما هزتم فارجعوا الى ديننا فهو خير لكم وأفضل ، ونحن أهدي منكم سبيلا فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا : شديد ، قال : فانى قد عاهدت أن لا أكفر بمحمد ما عشت ، فقالت اليهود : أما هذا فقد صبا ، وقال حذيفة : وأما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد نبيا وبالاسلام ديننا وبالقرآن اماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين اخوانا ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبراه فقال : أصبتما خيرا وأفلحتما .

فهذا النور الذى يشع من حولهم ويملأ الأرجاء هم يرونه نارا محرقة يخشون أن تحرقهم وأن يذتشر حريقها فيدمرهم . ويدمر كل شئ معهم فأسرعوا يحاولون اطفاء هذا المصدر كمن يحاول أن يطفى نارا توشك أن تحيط به .

حركة الخد :

فى قوله تعالى : «ولا تصغر خدك للناس» (١) نجد النهى عن التكبر واعجاب المرء بنفسه مصورا بصورة حركية لبعض أعضاء الجسم وهى صورة من يعرض بوجهه تكبرا فيميل بخده المقابل للناس احتقارا لهم ويلزم منه أمرهم بالتواضع أى أقبل

(١) لقمان ١٨ .

عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً ، وإذا حدثك أصغرهم فاصغ
اليه حتى يكمل حديثه ولا تعرض عنه أثناء الحديث بوجهك .
فالرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الاعراض عن الناس
فقال : « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد
الله اخوانا » فالتدابير : الاعراض وترك الكلام والسلام ونحوه
وانما قيل : للاعراض تدابير لأن من أبغضته أعرضت عنه
ووليته دبرك ، وكذلك يصنع هو بك . ومن أحببته أقبلت عليه
بوجهك ، وواجهته لتسره ويسرك ولكن المولى عز وجل آثر
النهي عن الميل بالحد دون الاعراض بالتدابير لنكتة لطيفة ،
وهي أن النهي عن مجرد الميل بالحد عن الناس يلزم منه النهي عن
الاعراض عنهم وتولييتهم أدبارهم من باب أولى ، لأن النهي عن
الأدنى يلزم منه نفى الأعلى من غير عكس فقد سلمك القرآن
الطريق الأبلى في النهي عن التكبر على منوال قوله تعالى :
« ولا تقل لهما أف » من باب القياس بالأدنى على الأعلى ،
فدلالة المنع من التأنيف تدل على المنع من الضرب من باب أولى .

والصعر : قيل : ميل في الوجه ، وقيل الصعر : الميل في
الخذ خاصة ، وقيل : هو ميل في العنق وانقلاب في الوجه الى
أحد الشقين ، وقد صعر خذه وصاعره أماله من الكبر قال
الملتصم :

وكنا اذ الجبار صعر خذه أقمنا له من ميله فتقومنا

وأصل الصعر هو داء يأخذ البعير فيلوى منه عنقه ويميله .
وفي الحديث « كل صعمار ملعون » قال أبو اسحق معنى : ولا
تصعر خذك للناس : لا تعرض عن الناس تكبرا . ومجازه

لا تلزم خدك الصعر ، والتصعير امالة الخد عن النظر الى الناس
تهاونا من كبر كآئه معرض (١) .

وعلى هذا فاذا كان اللفظ مأخوذاً في الأصل من الصعر
الذى هو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه يكون التعبير فى
الآية من المجاز أى أن الله تعالى شبه الرجل المتكبر بالبعير الذى
يصيبه داء فيلوى منه عنقه ثم حذف المشبه به وهو البعير ودل
عليه بلازمه وهو الصعر على سبيل الاستعارة المكنية . والأسلوب
القرآنى يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر
وهى حركة الكبر والازورار وامالة الخد للناس فى تعال
واستكبار ومن ثم تظل هذه الصورة الحركية المنفرة ماثلة فى
ذهن الانسان لا تفارقه وكأنها مشاهدة أمام عينيه تكون زجراً
له وردعاً عن فعل كل ما يؤدى الى الكبر ، وايشار صيغة
« تصعر » على غيرها لما تشير اليه من افادة معنى التكلف أى
تكلف اظهار الصعر ، وهو تمثيل للاحتقار لأن مصاعرة الخد
هيئة المحتقر المستخف فى غالب الأحوال (٢) .

وتشديد العين فى « تصعر » فيه دلالة على قوة هذا الحدث
والاصرار عليه ، ومؤدى هذا أن العيب ليس فى الهيئة نفسها
فقط ، ولكن فى تكلفها واصطناعها والاصرار عليها ، وهذا
التكلف يؤدى الى اصابة صاحبه بالأمراض النفسية لأن التكلف
فى الظهور دليل على الشعور بالنقص فى هذا الشئ ، ولو كان
يشعر بالثقة فى نفسه فى صفة ما كان فى حاجة الى المبالغة

(١) اللسان مادة « صعر » .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٦٦/٢١ .

فى اثباتها انفسه ، لأن نفسه مليئة بالشعور بها فليست فى حاجة لأن تعلن عنها بتكلف .

حركة الرجلين بالمشى فى الأرض مرحا :

فى قوله تعالى « ولا تمش فى الأرض مرحا » وهذا نهى ثان بعد النهى الأول عن تصغير الخد ، وكلاهما نهى عن التكبر والتبختر ، والمرح : فرط النشاط من فرح وازدهاء ، ويظهر ذلك فى المشى تبخترا واختيالا فيها قلة مبالاة بالناس ، وهى حركة كريهة يمجتها الله ويمقتها الخلق ، وهو تعبير عن شعور مريض بالذات يتنفس فى مشية الخيلاء فالجملة الأولى نهى عن التكبر على الغير بسبب كونه مكمل له ، ولذلك علقه بالناس « ولا تصغر خدك للناس » والجملة الثانية نهى عن التبختر فى النفس بسبب كونه كاملا فى نفسه (١) ، وعلى أية حال فهما متلازمان ، وقد ينفك أحدهما عن الآخر ، ولعل هذا هو المراد بدليل عطف الجملة الثانية على الأولى والعطف يقتضى المغايرة ، وفى الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال تعالى « أقم الصلاة » ثم قال تعالى : « وأمر بالمعروف » وفى النهى قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال : « ولا تصغر خدك » ثم قال تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا » لأن فى طرف الاثبات من لا يكون كاملا لا يمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال ، وفى طرف النفى من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا ، لأنه لا يتكبر على الغير الا عند اعتقاده أنه أكبر منه بوجه ، وأما من يكون متبخترا فى نفسه قد لا يتكبر ويتوهم أنه يتواضع للناس

(١) التفسير الكبير ١٢/٥١٠ .

فقدّم نفى التكبر ثم نفى التبخر ، لأنه لو قد نفى التبخر للنزم منه نفى التكبر فلا يحتاج الى النهى عنه (١) .

ويلاحظ أنه قد تقدم النهى عن المشى فى الأرض مرحا فى سورة الاسراء فى قوله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » ، وهذه الجملة « انك لن تخرق الأرض ... » مستأنفة استئنفا بيانيا ناشئا عن النهى بتوجيه خطاب ثان فى هذا المعنى على سبيل التهكم أى انك أيها الماشى مخلوق ضعيف لا تخرق بمشيك أديم الأرض ولا تبلغ بتطاورك فى مشيك طول الجبال فما الذى يغريك بهذه المشية ؟ والمقصود من التهكم : التشنيع بهذا الفعل والتغليظ فيه الآن الكبرياء لا يكون الا لله عز وجل فلا ينبغي لأحد مهما أوتى من قوة أو جاه أو سلطان أن ينازع الله تعالى فى صفة من صفاته فالتواضع أدب مع الله أولا وأدب مع الناس ثانيا .

فان قيل : ما موقع « فى الأرض » فى الآيتين بعد : « لا تمش » مع أن المشى لا يكون الا على الأرض ؟ والجواب هو أن قوله « فى الأرض » فيه إشارة الى أن المشى فى مكان يمشى فيه الناس كلهم قويهم وضعيفهم فيه عظة وعبرة للماشى مرحا أنه مساو لسائر الناس لأنهم جميعا خلقوا من الأرض فى مبدأ خلقهم واليها يصيرون فى نهاية حياتهم فيكون ذلك أدعى لفظا من النفوس اذا تذكروا مصدر خلقهم ونهاية حياتهم عند الموت ، ولعل هذا يفسر لنا السر فى اىثار حرف الجر « فى » دون « على » ويتضمن هذا التعبير بيان للمشية المعتدلة القاصدة

والقرآن لا يكتفى بدلالة التضمن أو اللزوم ، وإنما لابد من النص على بيان آداب المشى فى قوله تعالى : « واقصد فى مشيك » أى كن متوسطا فى مشيك ليس بالبطيء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلا وسطا ، قال صلى الله عليه وسلم : « سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن » .

والأمر بالقصد فى المشى يتبعه أو يلزمه القصد والاعتدال فى السلوك والمعاملات بأن تكون أخلاقه وسلوكياته على هذا النحو من التوسط وقد تكرر فى القرآن النهى عن مشية المتكبر المختال والأمر بالتوسط والاعتدال ومدح عباد الرحمن فجعل من أولى صفاتهم التى بها يستحقون الجنة المشى على الأرض هونا قال تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » . ثم قال فى نهاية تعداد صفاتهم « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » (١) والمقام يستدعى هذا التكرار بالنهى والأمر والمدح والثناء ، لأن الأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى قبل الاسلام كانت تخلق فواصل نفسية بين بعض أفراد المجتمع وبين البعض الآخر ، حتى أنه كان من الأسباب التى تمنع بعض أصحاب الجاه والسلطان من الدخول فى الاسلام نفورهم وأنفتهم من أن يصبحوا فى مستوى غيرهم من فقراء المسلمين كما يروى أن رؤساء من المشركين قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لو طردت عنا هؤلاء الأعباء يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم - رضوان الله عليهم - جلسنا إليك

(١) سورة الفرقن ٦٣ - ٧٥ .

«وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين .
فقالوا اجعل لنا مجلسا واجعل لهم مجلسا آخر ، وكان هذا
الوضع سائدا في المجتمع من عاداته وتقاليده .

قال عمر - رضى الله عنه - طمعا في ايمانهم - مخاطبا النبي
صلى الله عليه وسلم : « لو فعلت حتى تنظر الى ما يصيرون ،
ولكن القرآن نهى الرسول نهيا شديدا قاطعا عن أن يوافقهم
فيفرط بذلك في مبادئ الاسلام (١) .

قال تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
يريدون وجهه . . » (٢) ، وقد كان التكبر والاختيال للسادة
وأصحاب الجاه وضعا يقره المجتمع ، وكانت له أمارات سائدة
تظهر على المرء منهم في ملبسه وفي حركة مشيه فكان الفرد
منهم يصطنع لنفسه مظهرا خاصا يتميز به عن عامة الناس
منه : اسبال الازار وطول الرداء ومنه : المشية الخاصة التي
تنبئ عن الترفع عن عامة الناس والتعالى عليهم ، وقد يكون لكل
من هؤلاء طريقة خاصة في هذه المشية ، ولكنها جميعا تتخذ طابع
التكلف والتصنع الذي يدل على أن لصاحبه ميزة عن غيره في
المجتمع . ولم يكتف القرآن بالنهي المجرد عن التكبر والاختيال
وانما يسخر منه ويصوره في صورة حركية هي من المعاني
الأول ليفهم من ورائها المقصود بالنهي وهو ذم التكبر والخيلاء
وهي من المعاني الثانية . ونلاحظ أنه في مقام النهي عن

(١) انظر الكشف ٢/ ٢١ .

(٢) سورة الانعام الآية : ٥٢ .

التكبر فى آيتى الاسراء ولقمان أثر النظم الكريم حرف الجر «فى» فى قوله « فى الأرض » وفى مقام المدح أثر حرف الجر «على» فى قوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » فما السر فى ذلك ؟ والجواب هو الاشارة الى حركة المتكبرين حين يمشون على الأرض زهوا وخيلاء يضربون الأرض بأقدامهم أشرا وبطرا حتى كأن الواحد منهم يريد أن يخرق الأرض وتشق له ليسير فى طريق متميز منفصل عن سائر الناس ومع ذلك كأنه يطاول الجبال بشموخ أنفه ورفع هامته الى السماء أما فى مقام المدح فقد وصفهم بأنهم يمشون على الأرض هينين متواضعين فى لين وسكينة ووقار، ولا يضربون الأرض بأقدامهم تكبرا وخيلاء ، انه التخلق بآداب النفس العاليه وزوال بطر أهل الجاهلية فكانت هذه المشية من صفات عباد الرحمن على الضد من مشى أهل الجاهلية الذى يتسم بالشدة والعنف ومن هنا كان التخلق بهذا الخلق مظهرا من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن وكان وصفهم أى وصف مشيتهم بالهون تناسب ماهية الرحمة بالاضافة الى أن فيه سلامة المارين من الصدام أو الأذى، وقرن وصفهم بالتواضع فى سمتهم وهو المشى على الأرض هونا بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول ، وهو متاركة الذين يجهلون عليهم فى الخطاب بالأذى والشتم قال تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

حركة التمطى :

مط الشيء يمطه مطا : مده ، ومط حاجبه مطا : مده فى تكلمه ، ومط حاجبيه مطا مدهما تكبرا ، والتمطى : التمدد وأصله : يتمطط فقلبت الطاء فيه ياء كراهة اجتماع الأمثال (١) . قال تعالى : « فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب الى أهله يتمطى » (٢) ذكر فى هذه الآية ما يتعلق بأصول الدين وفروعه وما يتعلق بأمر دنياه ، فالذى يتعلق بأصول الدين نفى أنه صدق بالدين وإثبات التكذيب به ، والذى يتعلق بفروعه هو أنه ما صلى ولكنه تولى وأعرض والذى يتعلق بدنياه هو أنه ذهب الى أهله يتمطى ويتبخر . ويختال فى مشيته .

وقيل : هو من المطا وهو الظهر لأنه يلويه ، وفى حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - : « اذا مشيت أمتى الميططاء وخدمتهم فارس والروم كان بأسهم بينهم » (٣) قال الأصمعى : الميططى بالمد والقصر : التبخر ومد اليدين فى المشى . والمعنيان متقاربان لأن التمطط بمعنى التمدد أى أنه يتمدد فى مشيته تبخرا ، ولا فرق بينهما الا فى المادة اللغوية فان مادة المطا من « المطو » ومادة الثانى من المبط ، وقد ورد أن هذه الآيات تعنى شخصا معينا بالذات قيل : هو أبو جهل « عمرو بن

(١) سورة القيامة ٣١ - ٣٣ .

(٢) اللسان : مادة : مطط .

(٣) التفسير الكبير .

هشام ، ، وكان يجيء أحيانا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يسمع منه القرآن ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ولا يتأدب
ولا يخشى ويؤذى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالقول ،
ويصد عن سبيل الله ثم يذهب مختالا بما يفعل فخورا بما
ارتكب من الشر كأنما فعل شيئا يذكر .

فالتعبير القرآنى يتهم به ويسخر منه مصورا حركة
اختياله بأنه يتمطى أى يمط فى ظهره ويتعجب تعاجبا ثقيلا
كريها ، وهناك من أمثال أبى جهل ممن هم على شاكلته فى فعل
الشر والاختيال به ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد فى
قوله تعالى : « أولى لك فأولى » « ثم أولى لك فأولى » وهذا دعاء
عليه بأن يليه المكروه يعنى انك أحق به ثم انك أحق به أو
انه خبر مبتدأ مضمّر تقديره : العقاب أولى لك أو الهلاك ،
فالتكرار هنا للمبالغة فى التهديد والوعيد .

الكشف عن ساق :

فى قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون » (١) الكشف عن ساق مثل فى شدة الأمر وصعوبة الخطب والهول • وأصله أن المرء اذا هلع أن يسرع فى المشى ويشمر ثيابه فيكشف عن ساقه ، كما يقولون : فلان شمر عن ساعد الجد ، وأيضا كانوا فى الروع والهزيمة تشمر الحرائر عن سوقهن فى الهرب أو فى العمل فتتكشف سوقهن بحيث يشغلن هول الأمر من الاحتراز من ابداء ما لا تبيدنه عادة فيقال : كشفت عن ساقها أو شمرت عن ساقها •

وقالوا : كشف المرء عن ساقه كناية عن هول أصابه وان لم يكن كشف ساق ، وقالوا : كشفت الحرب عن ساقها اذا اشتدت وحمى وطيسها، وقالوا : قامت الحرب على ساق اذا جرت الحرب على أفضل ما يكون من تنفيذ الخطة وفاعلية الضرب على العدو • ومعنى الآية : يوم تبلغ أحوال الناس منتهى الشدة والروع فكشف الساق كناية عن الشدة ، ودليلنا على ذلك ما روى من أشعار العرب فقد قال ابن عباس : « اذا خفى عليكم شئ من القرآن فابتغوه فى الشعر ، فانه ديوان العرب ، وعندما سئل عن هذه الآية قال : أما سمعتم قول الشاعر :

صبرا عنساق انه لشر باق قد سن لى قومك ضرب الأعناق
وقامت الحرب بنا على ساق

(١) سورة القلم آية : ٤٢ •

وقال الراجز :

عجبت من نفسى ومن اشفاقها
ومن طرادى الخيل عن أراقها

فى سنة قد كشفت عن ساقها
حمراء تبرى اللحم عن عراقها
ويقول حاتم الطائى :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها
وان شمريت عن ساقها الحرب شمرها
وقال آخر :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
وقال الراجز :

قد شمريت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والزمخشري ذكر تفسيراً رائعاً لهذه الآية فقال : يوم
يكشف عن ساق : فى معنى يوم يشتد الأمر ويتفاقم ، ولا كشف
ثم ولا ساق كما تقول للأقطع الشحيح يده مغالوة ، ولا يد تم
ولا غل ، وانما هو مثل فى البخل وبين الزمخشري سر مجيء
الساق منكراً فيقول : فان قلت : فلم جاءت منكراً فى التمثيل؟
قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة منكر خارج عن
المألوف . كقوله تعالى : « يوم يدع الداع الى شئ نكر » ومجىء
الساق منكراً دليل على بطلان مذهب المشبهة الذين يقولون ان
المراد من قوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق » هى ساق الرحمن ،

ولو كان المراد بها ساق الرحمن لعرفت لأنها ساق مخصوصة معهودة عنده وهى ساق الرحمن (١) •

ونحن نقول فى انتظام العمل وجدته فى المصنع مثلاً :
الأمر فى المصنع تجرى على قدم وساق •

وجاءت السباق معرفة فى آية أخرى فى قوله تعالى :
« والتفت الساق بالساق » عند الموت تلتوى الساق وتلتف بالأخرى أو المراد : التفاف الأكفان على ساقيه ويقرن بينهما فى ثوب الكفن ، فكل ساق منهما ملتفة صلبة الساق الأخرى •
أو أن يكون هذا كناية عن الشدة كما مر فى آية القلم •

وقد وردت مجموعة فى قوله تعالى : « ردوها على فطقق مسحا بالسوق والأعناق أى جعل سليمان عليه السلام يمسح السيف بسوق وأعناق خيله أو مسحها بيده استحساناً لها واعجاباً بها » •

وقد وردت مثناة فى قوله تعالى : « فكشفت عن ساقها » عندما قيل للملكة سبأ ادخلى الصرح « فلما رأت حسيته لجة وكشفت عن ساقها » • والساق المعرفة والمجموعة والمثناة هى الساق على الحقيقة أما المفردة المنكرة فهى على المجاز كما بينا •

حركة القدم :

قال تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها » (١) الزلل : تزلق الرجل وتنقلها من موضعها دون ارادة صاحبها بسبب ملاسة الأرض من طين رطب أو تخلخس حصى أو حجر من تحت القدم فيسقط الماشى على الأرض ، وزلل القدم تمثيل لاختلال الحال والتعرض للضرر ، لأنه يترتب عليه السقوط أو الكسر ، كما أن ثبوت القدم تمكن الرجل من الأرض ، وهو تمثيل لاستقامة الحال ودوام السير ، وهذه الآية الكريمة جاءت لتوكيد الوفاء بالعهود والمواثيق التي أعطيت باسم الله وتحذير من الاستخفاف بجلال الله الذى أشهد على هذه العهود والمواثيق ، فانه لا يجرؤ على النكث بعهد الله الا من استخف بالله ، واتخذ من اسمه الكريم وسيلة يتوسل بها الى الغدر بالناس ، فقد صورت الآية من ينحرف عن الدين أو شبهت حالهم بحال الماشى فى طريق بينما كانت قدمه ثابتة اذا هى قد زلت به فصرع بجامع الهيئة الحاصلة من الانحراف بعد الاستقامة . ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فازلال القدم اشارة الى أن الاستخفاف باسم الله ونقض العهد الموثق باسمه ، هو مزلق الى الكفر حيث ينزل الانسان شيئا فشيئا اليه فتزل قدمه عن طريق الحق فاذا لم ينتزع نفسه مما وقع فيه مضى به الطريق الى حيث يضع قدميه جميعا على طريق الضلال ثم يمضى فيه الى

(١) من الآية ٩٤ من سورة النحل .

غايته (١) ، والعرب تقول لمن سقط في ورطة زالت قدمه
كقول الشاعر :

سيمنع منك السبق ان كنت سابقا
وتقتل ان زلت بك القدمان

(٢) التفسير القرآني للقرآن د/ عبد الكريم الخطيب / ٣٥٦ .

حركة الأعناق :

فى قوله تعالى : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » (١) روى عن ابن عباس قوله : نزلت فينا وفى بنى أمية ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد معاوية ، والمعنى انهم اذا ذلت رقابهم ذلوا ، فالأخبار عن الرقاب اخبار عن أصحابها فالتعبير بخضوع الأعناق كناية عن الاذعان والانقياد ، ولما كان الخضوع وضده يظهر فى الرأس والعنق جعله محله ، لأنه يتراءى قبل التأمل أنه هو الخاضع دون صاحبه ويرى المرحوم سيد قطب أن المراد من الآية : أنه لو شئنا أن نكرهم على الايمان لأكرهناهم ولأنزلنا من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالا ولا انصرافا عن الايمان ، ويصور خضوعهم لهذه الآية بصورة حسية : « فظلت أعناقهم لها خاضعين » ملوية محنية حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم فهم عليها مقيمون » (٢) فهم هذا الاستمرار من التعبير بالفعل الدال على ذلك وهو « ظلت » ومن الاخبار بالاسم « خاضعين » دون الفعل مما يفيد ثبوت خضوعهم واستمراره كما فى قوله تعالى : « وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد » فيفيد هذا التعبير ثبات كلهم على هيئة البسط واستمراره . فلو شاء الله أن ينزل آية قاهرة مادية تلوى الأعناق وتخضعها وتضطرها الى التسليم لفعل ذلك ، ولكنه لم يشأ ذلك لأنه قرر فى آية أخرى : « لا اكراه فى الدين » فالذى يأوى الى ظل الايمان لابد أن يكون مختارا طائعا غير مكره -

(١) سورة الشعراء آية ٤

(٢) فى ظلال القرآن ٥/٥٨٤ .

وهذا المعنى أنسب للسياق لأن الآية السابقة تصور مدى معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم وضيقه من عدم إيمانهم حتى أنه ليكاد يبغض نفسه أى يقتلها هما وحزنا بسبب تكذيبهم وهم أهله وعشيرته وقومه ، فربه يخفف من آلام نفسه ويسرى عنه هذا الهم القاتل ويهون عليه الأمر ويقول له : ان إيمانهم ليس مما كلفت، به لأنه ليس بمقدور لك وانما القادر على ذلك الاكراه هو الله تعالى وحده وهو لم يشأ أن يكون لأن الله تعالى خلق للناس عقولا وأرسل اليهم الرسل ومعهم الكتاب والحكمة للدعوة الى الايمان بالله مما يهيب العقول للنظر الصحيح والفهم الواعى للاعتراف بالحق والايمان بالله . ليتسنى ترتب جزائهم على أعمالهم التى كلفوا بها اختيارا منهم . فهو سبحانه وحده هو القادر على توجيه البشرية الى الفطرة الصادقة والايمان بالله والتى تعارضها مقتضى الطبيعة والحيلة الانسانية ، ولا يقدر على هذا التوجيه الا الله تعالى ، قال تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . . » ويقول الزمخشري : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فأقامت الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله كة ولهم : ذهبت أهل الإمامة كأن الأهل غير المذكور (١) .

والمثال الذى ذكره الزمخشري لتفسير الآية ليس دقيقا ، لأن « أهل » فى المثال غير مقحم ، لأنه المقصود بالحكم اذ هم أى

أهل اليمامة هم الذين ذهبوا حقيقة ، فأما التأنيث فلاكتسابه
التأنيث بالاضافة كما فى قوله :

شرقت صدر القناة من الدم

وهنا سؤال لماذا أتى بجمع السلامة دون الافراد والتكسير
اذ أن جمع السلام مختص بالعقلاء ، والأعناق ليست كذلك ؟
والجواب عنه بوجوه •

أحدها : أن المراد بالأعناق الرؤساء كما قيل : لهم وجوه
وصدور •

الثانى : انه على حذف مضاف أى فظل أصحاب الأعناق •
ثم حذف وبقي الخبر على ما كان عليه قبل حذف الخبر عنه
مراعاة للمحذوف •

الثالث : انه لما أضيف الى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم
كما يكتسب التأنيث بالاضافة لمؤنث •

الرابع : أن الأعناق جمع عنق من الناس وهم الجماعة
فليس المراد : الجارحة • وهذا قريب من معنى الأول اذ المراد
بهم جماعة الناس مطلقا رؤساء كانوا أو غيرهم ، والتعبير
على الوجهين الأول والرابع من المجاز المرسل الذى علاقته
الجزئية كما مر •

الخامس : انها عوملت معاملة العقلاء لما أسند اليهم
ما يكون من فعل العقلاء كقوله : « ساجدين » و « طائعين »
فى السجدة ويوسف (١) •

الهيئة الجسمية حين الخوف :

يصور القرآن حركة الجسم فى اسرعه وهيئته بمد العنق وتصويب الرأس مع فتح العينين وادامة النظر وذلك حين الخوف والفرع .

وقد ورد اللفظ المعبر عن هذه الحركة وهذه الهيئة فى ثلاث آيات فى القرآن وهو لفظ الاهطاع . قال تعالى فى سورة ابراهيم « مهطعين مقننى رؤوسهم » .

وقال فى سورة القمر : « مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

وفى سورة المعارج : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين » ، وقد مر الحديث عن الآية الأولى أما الآيتان الثانية والثالثة فتقول : ان المشهد الذى وردت فيه هذه الكلمة من مشاهد يوم القيامة وهو مشهد حركى شاخص يصور فيه المولى عز وجل حالة الناس عندما يخرجون من قبورهم للبعث والحساب بعد أن يدعو الداعى أو ينادى المنادى وهو اسرافيل يدعوهم الى شىء عظيم مهول ، لأن ما لفظ شىء من الابهام يشعر بأنه مهول وقد وصف هذا الشىء بأنه نكر أى موصوف بأنه منكر فظيع تنكره النفوس لانها لم تعهد بمثله ، وهو هول يوم القيامة ، ويشخص حالة الناس عند خروجهم من قبورهم فى خوف وذلة ينظرون من طرف خفى لا تثبت أحداقهم فى وجوه الناس وهى نظرة الخائف المفتضح ، وخشوع الأبصار كناية عن الذلة (١٠ - الإشارة)

والانخدال، لأن ذلة الدليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما (١)
ثم يصور خروجهم جميعاً من قبورهم في لحظة واحدة كأنهم
جراد منتشر وهذا التشبيه يوحى بالحركة والكثرة إذ الجراد
مثل في الكثرة والتموج يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في
بعض جاءوا كالجراد وهم في كثرتهم هذه يهطعون الداع أى
انهم مسرعون اليه مادي أعناقهم اليه لا يلتفتون الى شئ
غيره . وفي قوله تعالى : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين » .
أى مسرعين نحوك مادي أعناقهم اليك مقبلين بأبصارهم
عليك فيه معنى التعجب من حالهم لاسيما وهم في حضرة النبي
صلى الله عليه وسلم .

والكفار ينظرون الى النبي صلى الله عليه وسلم في غيظ
عنيف وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة
يوجهونها اليه يصفها القرآن في قوله تعالى : « وان يكاد
الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون
انه لمجنون » فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول -
صلى الله عليه وسلم - فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على
الأرض وثباتها يعنى أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم اليك
شذرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك
أو يهلكونك من قولهم نظر الى نظرا يكاد يصرعنى ، ويكاد
يأكلنى أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله وقيل : أراد
ليعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه

عداوة لك وحسدا • وجاء « يكاد » بصيغة المضارع للدلالة على تجدد الفعل في المستقبل واستمراره وجاء فعل « سمعوا » ماضيا • وفي هذا التعبير استعارة بالكناية شملت الأبصار بالسهم ، ورمز الى المشبه به بما هو من رواده وهو فعل « يزلقونك » (١)

حركة القلوب وبلوغها الحناجر :

فى قوله تعالى : « اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » (١) .

يصور الله عز وجل حال المسلمين عند مجيء الأحزاب من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، والخوف والفرع والكرب قد استولى على المسلمين ويرسم الله حركة الأبصار والقلوب تجاه هذا الموقف المهول حتى لكأننا نراه ماثلا أمام أعيننا فألخوف شعور نفسى داخلى ولكن الله تعالى يكشف عن أثره فى أعضاء الجسم البشرى بتصور مداه فى ملامح الوجوه وحركة الأبصار والقلوب ، فحركة الأبصار هى الزيغ وهو الميل عن الاستواء الى الانحراف فزيغ البصر أن لا يرى ما يتوجه اليه أو أن يريد التوجه الى صوب فيقع الى صوب آخر من شدة الرعب والفرع . وقيل : زاغت بمعنى مالت ، فلم تلتفت الا الى عدوها دهشا من فرط الهول . وقيل : مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة وشخصا وحركة القلوب بارتفاعها حتى تصل الى الحناجر ، والحنجرة : رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم ، والحلقوم : مدخل الطعام والشراب ، وعلى هذا تكون القلوب قد زالت عن أماكنها فى الصدور حتى بلغت الحناجر وهى الحلاقيم . وهنا نتساءل هل هذه الحركة المعبرة عن الخوف والفرع حقيقة أو مجاز عن شدة الخوف وجهان .

(١) سورة الأحزاب آية ١٠ و ١١ .

أحدهما : قالوا ان الرئة اذا انتفخت من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت أى زاد حجمها وانتفخت فارتفعت عن مكانها ، وارتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة • ومن ثمة قيل للجبان انتفخ سحره ، وعلى هذا تكون حركة القلب حقيقة بارتفاعه الى الحنجرة •

والوجه الثانى : أنه مثل لاضطراب القلوب ووجيبتها من الفزع والهلع حتى كأنها لاضطرابها تتجاوز مقارها وترتفع طالبة الخروج من الصدور فاذا بلغت الحناجر لم تستطع تجاوزها من الضيق فشبهت هيئة قلب الهلوع المرعود بهيئة قلب تجاوز موضع ، وذهب متصاعدا طالبا الخروج فالمشبه القلب نفسه باعتبار اختلاف الهيئتين •

وقد يكون المراد هو اضطراب القلب وضرباته أى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة على المبالغة ، وليس الكلام على الحقيقة فان القلوب لا تتجاوز مكانها ، وقريب منه قولهم : « تنفس الصعداء » « وبلغت الروح التراقى » •

ويقول الرازى : وقوله تعالى : « وبلغت القلوب الحناجر » كناية عن غاية الشدة ، وذلك لأن القلب عند الغضب يندفع ، وعند الخوف يجتمع فيقلص فيلتصق بالحنجرة ، وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف (١) •

ويصور المولى عز وجل حركة القلوب بتجاوزها موضعها

(١) التفسير الكبير ١٢/٥٧٩ •

حتى تصل الى الحناجر وذلك من هول يوم القيامة في قوله تعالى: « وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » (١) ، ومعنى القلوب لدى الحناجر : أن القلوب يشهد اضطراب حركتها من فرط الجزع مما يشاهده أهلها من بوارق الأهوال حتى تتجاوز القلوب مواضعها صاعدة الى الحناجر في حال كظمهم لما في دواخل نفوسهم فلا يستطيعون الكلام ، قال تعالى : « اليوم نختم على أفواههم ٠٠ » فقلوله : « كاظمين » قد يكون حالا من أصحاب القلوب المضطربة ، وقد يكون حالا من القلوب نفسها على معنى أن القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .

ويرى بعض المفسرين أن هذا التعبير محمول على الكناية عن شدة الخوف ، وبعضهم يرى أنه محمول على ظاهره ، وحمله على الظاهر أولى ، لأن شئون يوم القيامة وأحوالها شيء عظيم ، ووصف في أكثر من موضع أحوال الناس وما يلاقونه من أهوال يشيب لها الولدان .

« قضاء التفث » :

فى قوله تعالى : « ثم ليقتضوا تفثهم » (١) قيل : التفث هو الأخذ من الشارب وقص الأظفار ونتف الابط وحلق العانة ، وهو من تفث الرجل اذا كثر وسخه فى سفره ، ومعنى ليقتضوا : ليصنعوا ما يصنعه المحرم من ازالة شعر وشعث ونحوهما عند حله ، وفى ضمن هذا قضاء جميع المناسك اذ لا يفعل هذا الا بعد فعل المناسك كلها ، وقيل فيه دلالة على التحلل الأول وذلك يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة اذ يباح له كل ما كان محرما عليه بالاحرام ماعدا النساء فله أن يمس الطيب ويلبس الثياب وحلق الشعر أو تقصيره وقص الأظافر وغير ذلك . أما حقيقته الشرعية فاذا نحر الحاج أو المعتمر هديه وحلق رأسه وأزال وسخه وتطهر وتنقى ولبس فقد أزال تفثه ووفى نذره (٢) . وهذا التعبير يشير الى الكناية فانه يلزم من قضاء التفث المعنى الشرعى قضاء جميع المناسك .

ولاشك أن المحرم يناله من الشعث والوسخ نتيجة السفر والتنقل من مكان لآخر لأداء المناسك لاسيما فى أوقات الحر الشديد مما يؤدى الى تصبب عرقه ، قيل لبعض الصلحاء ما المعنى فى شعث المحرم ؟ قال : ليشهد الله تعالى منك الاعراض عن العناية بنفسك فيعلم صدقك فى بذلها لطاعته . قال نفطويه : سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله تعالى : « ثم ليقتضوا تفثهم » ؟ فقال : ما أفسر القرآن ، ولكننا نقول للرجل ما أتففسك وما أدركك » (٣) .

(١) تفسير القرطبي ٤٤٤٢/٧ . (٢) سورة الحج آية ٢٩ .

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦٩/١١ .

المصادر والمراجع

- ١ - اسم الاشارة فى القرآن الكريم - مواقعه وأسبراره البلاغية للدكتور محمد عبد المنعم - رسالة دكتوراة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالزقازيق .
- ٢ - الاعجاز البيانى للدكتورة بنت الشاطىء ط دار المعارف - الطبعة الثانية .
- ٣ - أصول الفقه للسرخسى ط دار ألكتاب العربى - القاهرة ١٣٧٢ .
- ٤ - الاكسير فى علم التفسير - ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب ومطبعتها بالجمايز .
- ٥ - البيان والتبيين للجاحظ ط دار المعارف - مصر .
- ٦ - البلاغة القرآنية للدكتور محمد أبو موسى - مطبعة وهبة .
- ٧ - التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر .
- ٨ - تزيين العبارة لتحسين الاشارة لملا القارى .
- ٩ - التفسير القرآنى للقرآن د/ عبد الكريم الخطيب .
- ١٠ - تفسير القرطبي - دار الربان للتراث .
- ١١ - تلخيص البيان فى مجازات القرآن للرضى .
- ١٢ - حاشية قطب الدين الرازى على الكشف مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة رسالة دكتوراة - للدكتور أيوب عبد العزيز أيوب .
- ١٣ - الخصائص لابن جنى - تحقيق محمد على النجار - الطبعة الثانية
- ١٤ - الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي - ط. دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الطبعة الاولى .

- ١٥ - دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر - تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي .
- ١٦ - سبل الاستنباط من الكتاب والسنة د/ محمود توفيق - مطبعة الامانة ١٩٩١ .
- ١٧ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي - ط أولى - نشر دار الكتب العلمية - لبنان .
- ١٨ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي .
- ١٩ - شرح الكافية البديعية - ط مجمع اللغة العربية - دمشق ١٩٨٣ .
- ٢٠ - الصبغ البديعي في اللغة العربية - للدكتور أحمد موسى ط وزارة الثقافة .
- ٢١ - الفوائد المشوق لابن قيم الجوزية - نشر دار الكتاب العربي بيروت .
- ٢٢ - في ظلال القرآن لسيد قطب - مطبعة الشروق .
- ٢٣ - الكشف للزمخشري - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٢٤ - لسان العرب لابن منظور المصري ط المعارف .
- ٢٥ - مفاتيح الغيب للرازي - نشر دارالغد العربي - القاهرة الطبعة الاولى .
- ٢٦ - نقد النثر لابن وهب الكاتب تحقيق د/ طه حسين .
- ٢٧ - المتزج البديعي في تجنيس أساليب البديع - مكتبة المعارف - الرباط - المغرب .

الفهرس

المقدمة

٢

القسم الأول

التصوير بالاشارة (الحسية والمعنوية)

الاشارة

٧

الاشارة الحركية ودلالاتها

٨

ابن المقفع

٨

الجاحظ

٩

الخطيب

١٢

ابن وهب السكاك

١٣

تأثر قدامة بن جعفر بالجاحظ

١٣

ابن رشيق

١٤

ابن سنان الخفاجي

٢١

ابن النقيب

٢٢

صفى الدين الحلبي

٢٣

أبو محمد القاسم الانصاري

٢٤

الحكمة من الاشارة في الصلاة

٤٠

القسم الثاني

٤٣	التصوير الحركى بالأعضاء الجسمية
٤٥	المشاهد الحركية
٥٣	حركة اليد وما يتصل بها
٥٥	حركة عض الأنامل
٥٨	حركة السقوط فى اليد
٦٠	بسط اليد وقبضها
٦٥	حركة اليد وإشارتها الى الفم
٧٢	حركة شد اليد بالغل الى العنق
٨٠	حركة اليد بالضم والنزع والسلك والادخال
٨١	تقليب الكفين
٨٣	حركة شد العضد
٨٨	انكباب الوجه
٩٢	صك الوجه
٩٣	حركة الانقلاب على الوجه
٩٨	إشارة الرأس وحركتها
١٠٢	طمس الوجوه وردّها على أدبارها
١٠٣	حركة الوجوه بتقلبها فى النار
١٠٥	حركة الاخذ برأس أخيه وجره اليه
١٠٨	حركة لوى الرؤوس
١٠٩	حركة ثنى الصدور واستغشاء الثياب
١١١	حركة ثنى العطف
١١٢	حركة الجنب
١١٩	حركة الغمز والهمز واللمز
١١٩	حركة دوران الأعين والسلق باللسان

١٢٤	حركة الفم بالتبسم والضحك
١٢٦	حركة الفم بالنفخ في النور لإبطال أثره
١٣٠	حركة الرجلين بالمشي في الأرض مرحا
١٣٥	حركة التمطى
١٣٧	الكشف عن ساق
١٤٠	حركة القدم
١٤٢	حركة الأعناق
١٤٥	الهيئة الجسمية حين الخوف
١٤٨	حركة القلوب وبلوغها الحناجر
١٥١	قضاء التفث
١٥٣	المراجع والمصادر
١٥٧	الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٥٩٣/١٩٩٤
ت ٢/١١/١٩٩٤